مِن وَحْيِ السِّيرَةِ

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

محمد الغزالى، ١٩١٧ ـ ١٩٩٦
مِن وَحْي السِّيرَة/ محمد الغزالى
نيوبوك للنشر والتوزيع
14 × 21 سم
تدمك: 9789776519831
رقم الإيداع: 27647/2017
1 ـ السيرة النبوية
أ ـ عمارة محمد (مقدم)
ب ـ عبد العظيم، على (معد مشارك)
جـ ـ العنوان

دار النشـــر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: مِن وَحْيِ السِّيرَة لفضيلة الشيخ محمد الغزالي
الـكـاتـب: محمد عمارة
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2018

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطني ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmail.com

مِن وَحْيِ السِّيرَةِ

لفضيلة الشيخ

محمد الغزالي

تقديم

د . محمد عمارة

إعداد

د . علي عبد العظيم

NEW BOOK

نيو بوك للنشر و التوزيع

المحتويات

بطاقة حياة ٩
تعريف موجز ٢١
تقديم كتاب من وحي السيرة ٦٣
مُقدِّمَةٌ ٦٩
مَعالِمُ النُّبوَّةِ ٧١
الميلادُ اليَتيمُ ٧٧
نَبيُّ النُّورِ ٨٧
مِن أَخلاقِ النُّبوَّةِ ٩٣
عاطِفَةٌ ٩٩
مِن أَسرارِ العَظَمَةِ ١٠٥
جِهادُ الدَّعوَةِ ١١٥
لِـمَاذا حُورِبَ؟ ١٢٣
أَصحابُ الرِّسالاتِ ١٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بطاقة حياة

الشيخ محمد الغزالي

[١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م]

(.. لو كنت «ملكًا» لأبيتُ إلا الانتظام في سلك الأُخوَّة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على السوء!..)

الشيخ محمد الغزالي

* هو «الفقيه ـ الداعية ـ المجدد» الشيخ محمد الغزالي أحمد السقا مرسي..

مصري المولد، والنشأة.. ولد ـ لأسرة ريفية فقيرة ومتدينة ـ في قرية «نكلا العنب»، مركز «إيتاي البارود»، محافظة «البحيرة» بدلتا مصر يوم السبت ٥ من ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ، ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٧م. ولقد اختار له والده اسم: محمد الغزالي، تيمنًا بحجة الإسلام أبو حامد الغزالي؛ لنزعة صوفية لدى الوالد..

* وكان الشيخ الغزالي أكبر أخوته ـ السبعة ـ ولقد نشأ وأسرته الفقيرة تعلق عليه الآمال.

ولقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، والتحق ـ طالبًا للعلم الإسلامي ـ بالمعهد الديني التابع للأزهر الشريف، بمدينة الإسكندرية، فحصل على الشهادة «الابتدائية» سنة (١٩٣٢م).. ومن نفس المعهد ـ القسم الثانوي ـ حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة (١٩٣٧م)..

* وفي سنة (١٩٣٧م) التحق بالتعليم العالي الأزهري ـ كلية «أصول الدين» ـ بالقاهرة.. وفيها تلقى العلم على كوكبة من كبار العلماء، منهم: الشيخ عبد العظيم الزرقاني، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.. وتخرج من «أصول الدين»، فنال شهادة «العالمية» سنة (١٩٤١م).. كما حصل ـ من نفس الكلية ـ على إجازة الدعوة والإرشاد سنة (١٩٤٣م)..

* وفي نفس العام الذي التحق فيه بكلية أصول الدين سنة (١٩٣٧م) التقى بمرشد جماعة الإخوان المسلمين: الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) وأصبح عضوًا بالجماعة، فبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعملية..

* ولقد تزوج الشيخ الغزالي وهو لا يزال طالبًا بكلية أصول الدين، وأنجب من الأولاد تسعة.. يحيا منهم ولدان ـ ضياء.. وعلاء ـ وخمس سيدات..

* كما بدأت ممارسته للدعوة الإسلامية أثناء طلبه العلم بكلية أصول الدين، عندما عمل إمامًا وخطيبًا بأحد مساجد القاهرة.. فلما نال شهادة العالمية سنة (١٩٤١م)، عين ـ في العام التالي سنة (١٩٤٢م) ـ بوزارة الأوقاف: إمامًا وخطيبًا بمسجد «العتبة الخضراء» بوسط القاهرة.. ولقد تدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف المصرية،

فتولى التفتيش بالمساجد.. والوعظ بالأزهر الشريف.. ووكيلًا، فمديرًا للمساجد.. فمديرًا للتدريب.. فمديرًا للدعوة والإرشاد في ٢ يوليو سنة ١٩٧١م.. فوكيلًا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية، في ٨ مارس سنة ١٩٨١م.

* ولقد تفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يدي الشيخ حسن البنا، وفي صحافة جماعة الإخوان ـ التي أصبح من كتابها ـ حتى أُطلق عليه لقب «أديب الدعوة».. وكتب إليه الأستاذ البنا خطابًا ـ في (١٩٤٥م) ـ يقول له فيه:

«أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: قرأت مقالك «الإخوان المسلمون والأحزاب» في العدد الأخير من مجلة «الإخوان»، فطربت لعبارته الجزلة ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين.

هكذا يجب أن تكتبوا ـ أيها الإخوان المسلمون ـ اكتب دائمًا، وروح القدس يؤيدك، والله معك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حسن البنا».

* ولقد تحمل الشيخ الغزالي نصيبه من المحن والمكاره التي أصابت جماعة الإخوان المسلمين.. فقضى في معتقل «الطور» ـ بشبه جزيرة سيناء ـ قرابة العام، سنة (١٩٤٩م).. وأقل من عام في سجن «طره»، إبان التحقيقات مع الشهيد سيد قطب سنة (١٩٦٥م).

* ولما شارك في «المؤتمر الوطني للقوى الشعبية» سنة ـ١٩٦٢م)، كانت له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها عدد من الصحفيين

الليبراليين واليساريين، وانتصرت له فيها جماهير المساجد.. وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو بن العاص، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف.. وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة، فتهم بتقييد حريته، كانت تتحرك لنصرته مظاهرات جماهير المساجد.. وفي سنة (١٩٧٤م) كان له ـ هو والشيخ محمد أبو زهرة ـ موقف معارض للتعديلات التي أُدخلت على قانون الأحوال الشخصية، فكان يرى أن مشكلة مصر هي في عجز شبابها عن تكاليف الزواج، وليست المشكلة في تعدد الزوجات. فضاقت الدولة بمعارضته، ومنعته من الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وسحبوا منه اختصاصاته في وظائف الدعوة، حتى لقد ألغوا المنصب الذي كان يشغله ـ مدير عام الدعوة!.. فوجد نفسه على «حصير» ـ دون مكتب ـ في «سندرة» ملحقة بمسجد صلاح الدين ـ بالقاهرة ـ فجلس على «الحصير» يشتغل بالتأليف!..

* ولما أحس باقتراب المخاطر منه إبان التحقيقات مع صالح سرية ـ المتهم الأول فيما عرف بقضية «الفنية العسكرية» الذي ذكر أنه زار الشيخ الغزالي مرة! سعى إلى الخروج من مصر، فسافر إلى المملكة العربية السعودية، أستاذًا بجامعة أم القرى ـ بمكة المكرمة ـ فأمضى بالجامعات السعودية: ما بين سنة (١٩٧٤م) وسنة (١٩٨١م). وفي (١٩٨١م) ـ الذي رُقي فيه إلى منصب وكيل وزارة الأوقاف لشؤون الدعوة ـ قدم استقالته من الوزارة، عندما اختلف مع سياسة الدولة في الصلح مع إسرائيل..

* وكان تعرُّف الشيخ الغزالي على الواقع العربي والإسلامي ـ خارج مصر ـ قد بدأ مبكرًا.. ففي سنة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣م) شغل وظيفة

رئيس «التكية المصرية» بمكة المكرمة.. وفي الأعوام من سنة (١٩٦٨م) إلى (١٩٧٣م) أمضى شهر رمضان في دول الكويت وقطر والسودان والمغرب.. وشارك في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر بانتظام ـ سنويًّا ـ منذ سنة (١٩٨٠م).. وعمل في قطر ـ أستاذًا زائرًا ـ ما بين سنة (١٩٨٢م) وسنة (١٩٨٥م).. وعاش بالجزائر ما بين سنة (١٩٨٥م) وسنة (١٩٨٨م) منشئًا وراعيًا لجامعتها الإسلامية ـ جامعة الأمير عبد القادر، ومشرفًا على مجلسها العلمي ـ وعلى امتداد هذه الأعوام الخمسة عشر (١٩٧٤ ـ ١٩٨٨م) عاش واقع الأمة، واستوعب مشكلاتها، وأعطى لجماهيرها، وغدا أبرز فقهاء الدعوة والتجديد والأصالة والاستنارة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام..

* ولقد امتلك الشيخ الغزالي حرية المفكر، واستقلالية المجدد منذ بداية عقد الخمسينات، عندما استقل عن تنظيم جماعة الإخوان المسلمين ـ لخلافه مع مرشدها العام الأستاذ حسن الهضيبي ـ فكان تفرغه للدعوة والتأليف.. وظل محافظًا على استقلالية الفكر، حتى بعد أن عادت المودة والتعاون والعلاقات مع جماعة الإخوان في سنوات عمره الأخيرة..

* وإذا كان الشيخ الغزالي قد تتلمذ على حسن البنا، الذي تتلمذ على رشيد رضا: تلميذ محمد عبده ـ أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغاني ـ فلقد حدد الشيخ الغزالي منهاج هذه المدرسة التي ينتمي إليها مشروعه الفكري التجديدي ـ في معرض حديثه عن مدارس الفكر الإسلامي ـ مدرسة الرأي والأثر.. والموازنة بينهما ـ كما هو الحال عند ابن تيمية ـ مع ميل للأثر.. ومدرسة الاختيار الشخصي والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة ـ حدد منهاج مدرسته، التي وازنت بين «الرأي» و«الأثر»،

على نحو متميز عن موازنة مدرسة ابن تيمية، وذلك «بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلًا للنقل.

وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد، وهي ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون في القرآن نص انتهى أمده، من ثم فهي تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالًا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة»[1].

فهو عَلَم متميز من أعلام هذه المدرسة، التي تمايزت اجتهادات وتجديدات أعلامها في هذا الإطار.

* ولقد كان الشيخ الغزالي يوجز الحديث عن الإسلام عندما يقول: إنه «قلب تقي، وعقل ذكي» معبرًا ـ بذلك ـ عن منهاج الوسطية الإسلامية الجامع ـ في مصادر المعرفة ـ بين كتابي الله: كتاب الوحي المسطور، وكتاب الكون المنظور.. وفي سبل المعرفة، بين: العقل والنقل، والتجربة والوجدان.. ولذلك كان عطاء الشيخ الغزالي في «القدوة» منافسًا لعطائه في «الفكر»، كما برئ مشروعه الفكري من الفصام بين العقل والقلب، وامتزجت فيه الرؤية لمشكلات الأمة والإنسانية، والماضي والحاضر والمستقبل جميعًا..

ـ ففي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية: قدم عدالة الإسلام، في العديد من الآثار الفكرية.. من مثل: (الإسلام والأوضاع

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ٦٩ ـ ٧٧)، طبعة دار الوفاء، القاهرة سنة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

الاقتصادية) و(الإسلام والمناهج الاشتراكية) و(الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و(الإسلام في وجه الزحف الأحمر).. إلخ.

ـ وفي مواجهة الاستبداد السياسي: دافع عن الشورى الإسلامية، في كتبه: (الإسلام والاستبداد السياسي) و(حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة).. إلخ.

ـ وفي مواجهة الهيمنة الغربية وتيارات العلمانية والمادية والإلحاد والتغريب قدم: (من هنا نعلم) و(دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين) و(الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و(مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه) و(صيحة تحذير من دعاة التنصير).. إلخ.

ـ وفي مواجهة الجمود والحَرْفيَّة والتقليد قدم: (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) و(تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل) و(قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة) و(السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث).. إلخ.

ـ ولتجديد الذات الإسلامية: قدم عشرات الكتب، من مثل: (خلق المسلم) و(عقيدة المسلم) و(جدد حياتك) و(فقه السيرة) و(كيف نفهم الإسلام؟) و(الجانب العاطفي من الإسلام) و(سر تأخر العرب والمسلمين) و(نظرات في القرآن) و(كيف نتعامل مع القرآن؟).. إلخ.

* ولقد كانت رسالة الشيخ الغزالي في حياته الفكرية والدعوية والتعليمية والعملية هي إحياء الأمة بالإسلام، وتحريكها بطاقاته الإحيائية.. «فالجهد الأول المطلوب هو تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر!.. وسوف تتلاشى التحديات

التي تواجهنا يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجًا، حكامًا وشعوبًا»[1]!..

* وكان داعية لتحرير العقل الإسلامي من قيود الجمود والتقليد، وذلك بالتمييز بين مصادر الإسلام المعصومة، وبين الفكر الإسلامي غير المعصوم، ورفض الادعاء بأن الأولين لم يدعوا للآخرين مجالًا في الاجتهاد والتجديد «فالإسلام هو صائغ الأئمة المجتهدين، وهم لم يصوغوه.. ومصادر الإسلام معصومة؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.. والأئمة الأوائل كانوا روادًا في تأسيس الفقه الإسلامي، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار..»[2].

* وكان يرى أن صلاح دنيا الناس ـ بالعدالة الاجتماعية ـ شرط لصلاح قلوبهم بدين الإسلام.. فعدالة الإسلام هي الطريق إلى فضائل الإسلام وتقوى القلوب.. «إذ من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية!.. أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريًا!.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقًّا في محاربة الرذائل باسم الدين، أو راغبين حقًّا في هداية الناس لرب العالمين!»[3].

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (ص ١٩)، و(هموم داعية)، (ص ١٧)، طبعة سنة (١٩٨٣م).

(٢) دستور الوحدة الثقافية، (ص ٨٥ ـ ٩٣).

(٣) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، (ص ٦١، ٦٢)، طبعة سنة (١٩٨٧م).

* وكان يدعو ـ في فهم المصدر الأول للإسلام: القرآن الكريم ـ إلى تدبر محاوره الجامعة: التوحيد، الذي هو قانون الوجود ونظام الحياة، وطريق تحرير الإنسان وملكاته من العبودية للطواغيت، وآيات الله الكونية، المبثوثة في الأنفس والآفاق، والتي على تعقلها ترتفع أركان الدين وأعلام الإيمان.. والقصص القرآني، كأداة للتربية والتزكية، ومعالم على طريق الاعتقاد الديني.. ونبأ الغيب والبعث والجزاء، ودوره في بناء الأخلاق.. والتربية والتشريع، لصلاح الدنيا، الذي يتأسس عليه صلاح يوم الدين[1]..

* وكان مدافعًا عن سنة رسول الله ﷺ، فهي مع القرآن: «قوام الإسلام، وهي الامتداد لسنا القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه، وكما أنه لا فقه إلا بسنة، فلا سنة بغير فقه.. والحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه.. والأحكام في الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن، استنبطها النبي ﷺ من القرآن، بتأييد إلهي، وبيان رباني»، فهي بيان نبوي للبلاغ القرآني، وإرادة من الله لنبيه؛ ليفصِّل ما أجمله القرآن[2]..

* ولقد عاش الشيخ الغزالي حياته وقلبُه معلقٌ بالمساجد.. وكان حلم حياته ـ الذي حققه عندما كان مسؤولًا عن الدعوة بوزارة الأوقاف ـ أن

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، طبعة سنة (١٩٩٤م).

(٢) دستور الوحدة الثقافية، (ص ٣٣، ٣٤، ٣٦ـ٣٨)، و(السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)، (ص ١١٨، ١١٩) طبعة سنة (١٩٨٩م)، و(هذا ديننا)، (ص ١٩٧)، طبعة سنة (١٩٦٥م).

تصبح المساجد جامعات إسلامية حرة لشباب الأمة وجماهيرها، تلقى فيها الدروس المنظمة في علوم الدين والحضارة الإسلامية.. حتى لقد كان آخر الأوراق التي كتبها إلى الندوة التي عقدت بجامعة الأزهر ـ يوم ٥ مارس سنة ١٩٩٦م ـ حول المساجد والدعوة الإسلامية ـ والتي حال سفره دون حضوره لها ـ كانت بمثابة «الوصية» التي كتبها؛ لتحويل المساجد إلى جامعات للثقافة الإسلامية.. ولقد اتخذتها «الندوة» «توصيات» لمداولاتها.. وكان ذلك قبل وفاته بأربعة أيام!..

* ولقد شَرُفَت بعضوية الشيخ الغزالي العديد من المجامع الفكرية والمؤسسات العلمية.. من مثل «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف، «والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية» بالأردن، و«المعهد العالمي للفكر الإسلامي» بواشنطن، و«الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» بالكويت.. إلخ.. إلخ.

* كما حصل على العديد من الأوسمة والجوائز.. من مثل:

١ ـ وسام الأسير ـ وهو أعلى وسام بالجزائر ـ سنة (١٩٨٨م).

٢ ـ جائزة الملك فيصل العالمية ـ لخدمة الإسلام ـ سنة (١٩٨٩م).

٣ ـ جائزة الامتياز ـ من باكستان ـ سنة (١٩٩١م).

٤ ـ جائزة الدولة التقديرية ـ من مصر ـ سنة (١٩٩١م).

٥ ـ جائزة علي وعثمان حافظ ـ لمفكر العام ـ سنة (١٩٩١م).

* ولقد عاد الشيخ الغزالي للإقامة الدائمة بمصر ـ في منزله رقم (١٠) بميدان الدكتور سليمان ـ بحي الدقي ـ بالقاهرة ـ منذ سنة (١٩٨٨م)..

وكانت أسفاره إسهامًا في الملتقيات العلمية والفكرية.. وكان من أواخرها رحلته إلى الأمم المتحدة ـ حيث خطب في عيدها الخمسين، ممثلًا للأزهر الشريف سنة (١٩٩٦م) ـ وأمضى بين مسلمي أمريكا ـ في تلك الرحلة ـ ثلاثة أسابيع..

* وبعد أسابيع من عودته، سافر إلى المملكة العربية السعودية، للمشاركة في المهرجان الوطني للثقافة ـ الجنادرية ـ حيث لبى نداء ربه، فصعدت روحه إلى بارئها ـ في قاعة الملك فيصل ـ والقلم في يده يدون نقاطًا للدفاع عن الإسلام، مساء يوم الجمعة ١٧ شوال سنة ١٤١٦هـ، ٩ مارس سنة ١٩٩٦م؛ ليدفن «بالبقيع»، في المدينة المنورة، عاصمة النبوة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

❀ ❀ ❀

تعريف موجز
بكتب الشيخ الغزالي[1]

١ ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية

تقع الطبعة السابعة من هذا الكتاب في (٢١٤) صفحة، وقد صدرت عن دار الصحوة (١٩٨٧م)، وكانت الطبعة الأولى من الكتاب عام (١٩٤٧م)، أول ما أصدر الغزالي من كتب، وقد كتب المؤلف مقدمة الطبعة السابعة مؤكدًا أن في الكتاب لمحات وجب إعادة النظر فيها، وأن كثيرًا من مواطئ الإقدام تحتاج إلى تبيين، وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص، مع ظهور حقائق جديدة، مع ما أفاده المؤلف من تجربة العقود الماضية.

ومن عناوين الكتاب: الطبقات المترفة والطبقات البائسة، الصراع

(١) اعتمدنا في هذا «التعريف» ما جاء في الكتاب الذي أصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي عن (العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي)، والذي ضم وقائع وأبحاث «حلقة دراسية» أقامها المعهد ـ في عَمان ـ مع «المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية» و«جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية» ٤ صفر سنة ١٤١٧هـ، ٢٠ يونية سنة ١٩٩٦م، (ص ٢٢٩ ـ ٢٦٠) طبعة عمان ـ الأردن ـ (١٩٩٦م).

بين الخير والشر، هل للرذائل أسباب اقتصادية؟ هل للفضائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلي يمهد للاستعمار الخارجي، سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة، ضوابط الملكية الخاصة في الإسلام، هل تغني ضريبة الأرض عن زكاتها؟ المجتمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين، قيمة العقل والدين.

٢ـ الإسلام والمناهج الاشتراكية

يقع الكتاب في (٢٧٠) صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة، وهذا الكتاب صيحة تنبيه ضد ما يحيق بالإسلام من تآمر ومن تهديد لشرف الدعاة إليه، وهو دعوة ممتلئة بالتفاؤل للعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، وتحديد موقفه من العلم والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي، ومواقفه من المذاهب الحديثة.

ومن أبرز عناوينه: الإسلام في أوطانه، شرف الدعاة إلى الإسلام مهدد، التأمين الاجتماعي، مجتمع مثالي، عمل الدولة، فلسفة الغنى والفقر، القعود عن الدنيا هدم للدين، الفساد السياسي أخبث علل المسلمين، توزيع الملكيات، موضع الفرد من الحياة العامة، نظام ملكية الأرض في الإسلام، الدين والربا، الاحتكار، الصراع بين الشيوعية والإسلام.

٣ـ الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين

يقع الكتاب في (١٧٨) صفحة، وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد صدرت عن دار الكتاب العربي في القاهرة عام (١٩٥٠م)، ويقول

المؤلف في مقدمة الكتاب: «كادت هذه الصحائف تضيع في أثناء الأزمة العصيبة التي أصابت الفكر والقلم، وطمست الحقوق والحريات، على عهد الاحتلال الداخلي للإدارة المصرية، أيام حكم الأقليات السياسية في الفترة (١٩٤٤ ـ ١٩٤٩م).. وقد تم استنقاذ هذه الصحائف من براثن العدم، برغم أن كثيرًا من غيرها ضاع في خلال الإرهاب المنظم الذي خرب البيوت، وفتح المعتقلات.. ولقد نشرت في الكتابين السابقين لهذا الكتاب بحوثًا مستفيضة عن حقيقة النظام المالي في الإسلام، أو ما أسميناه على سبيل التجوز (الاشتراكية الإسلامية)، وأستطيع القول بأننا أسخطنا الرأسماليين والشيوعيين بهذا المنهج الذي جنحنا إليه».

وقد نشر أغلب الكتاب من قبل فصولًا متفرقة، على نحو ثلاثين عددًا من إحدى المجلات الدينية، ويؤكد المؤلف في مقدمة الطبعة الثالثة أن الكتاب وأخويه من قبل (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و(الإسلام والمناهج الاشتراكية) أول ما خُط في اللغة العربية من كلام في هذا الموضوع، وأن هذا الكلام كان مستغربًا في ميادين الدين والأدب والسياسة، وأنه ـ أي الشيخ الغزالي ـ بدأ السير وحده في هذا الميدان، ثم أدركه بعد من أربى وأجاد.

والكتاب في مجمله كشف جريء للمظالم الاقتصادية المؤلمة، التي تئن تحت وطأتها الشعوب في البلدان الخاضعة للاستعمار الأبيض والأحمر على السواء.. وقد جاءت مقالات هذا الكتاب قصيرة مختصرة، ولكنها مجمعة في فصول عامة بالعناوين التالية: الحضارة بين الإيمان والإلحاد، دعائم الأخوة العامة، نماذج العدالة في الإسلام، الفقه الإسلامي يساير التطور الاقتصادي، المتحدث الرسمي باسم الإسلام، دروس من السماء.

٤ـ الإسلام والاستبداد السياسي

يقع الكتاب في (٢٢٧) صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة (١٩٨٤م). وأصل الكتاب محاضرات ألقاها الغزالي في معتقل الطور عام (١٩٥١م)، ونشر بعضها فيما بعد في بعض المجلات، ولم تجمع في كتاب إلا بعد بضع عشرة سنة، وكان لها دوي بعيد المدى في إقلاق الظلمة، وكانت استجابة القدر لها أسرع مما يتصور الكثيرون، وقد هتك المؤلف بهذا الكتاب أستار الاستبداد، وحذر الشعوب من مغبة الاستسلام له في أحوال المجتمع والدولة.

ويؤكد الشيخ الغزالي في الكتاب أن الإسلام لم يعرف حكم الفرد أو الحكم الدكتاتوري، بل كانت تعاليمه ومبادؤه تدعو إلى الشورى والرأي الجماعي، وذلك كان حال المسلمين على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، كما حث الإسلام على الجهاد، فجعله واجبًا على كل مسلم لديه القدرة على الجهاد، ثم يتناول الشيخ الغزالي بعض القضايا المعاصرة ليقول رأيه فيها.

ويتضمن الكتاب: الشورى، الجهاد، الرق في الجاهلية، قضايا معاصرة، قضايا إسلامية.

٥ـ من هنا نعلم

يقع الكتاب في (٢٤٣) صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة، الطبعة السادسة (١٩٦٥م). وفي هذا الكتاب يرد الشيخ الغزالي على كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ خالد محمد خالد، لما فيه من شطط وخلط للمفاهيم الإسلامية؛ لأن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ

والسكوت عليه، وبيَّن المؤلف أن علاقة الدين بالدولة في الإسلام وحدة لا تقبل التجزئة، وأن كل محاولة للفصل بينهما؛ إنما هي إفساد للإسلام وعدوان عليه، من حيث هو عقيدة وشريعة على السواء، ولم يكن الكتاب مجرد رد لشبهات أثارها الشيخ خالد بقدر ما كان دفاعًا عن الإسلام وبيانًا لقيمه، ومع أن الشيخ الغزالي شديد في هجومه، فإنه كان رفيقًا مع الشيخ خالد، بل استمر في علاقته به بعد الكتاب، ورفض فتوى الأزهر بتجريده من شهادته.

ويتضمن الكتاب: ردود الشيخ حول الحدود وضرورة إقامتها، وبدعة فصل الدين عن الدولة، وعن دور المرأة الاجتماعي، وعن الكهانة والإسلام، وعن الديمقراطية، وتحديد النسل، والقومية العربية والإسلام.

٦ـ تأملات في الدين والحياة

يقع الكتاب في (٢٥٧) صفحة طبعة دار الدعوة الثانية (١٩٩٢م) الكتاب مجموعة من المقالات والخواطر والبحوث واللفتات، عالجت أمورًا لا تزال تستحق المزيد من النقد والنظر، وخير ما فيها أنها عرضت الدين على الناس نابضًا بالحياة والحركة، ونشدت للحياة ضوابط الإيمان والتقى، وكتب كثير من منها عندما كان الغزالي يحرر مجلة الإخوان المسلمين، وبعض مقالات الكتاب ظهرت فيما بعد على شكل كتب مستقلة، ويتحدث الشيخ الغزالي في مقدمة الكتاب عن بعض ملامح شخصيته، التي تبدو للناس مختلفة عما ألفوه في الدعاة ورجال الدين ـ كما يسمونهم ـ فهو لا يطيق التزمت، ولو تكلفه ما أحسنه، وأنه يجنح إلى

المرح ويتلمس الجوانب الضاحكة في كل شيء، وأنه شعبي في تصرفه.. وأنه يحب الناس، ويتمنى لهم الخير ويثق في صدق جماهير العامة من المسلمين ونقائهم.. ويؤكد أن من الدعاة من مشوا في آثار النبوة وصدقوا الله جهادهم؛ لكن في بعض الناس زهادًا متصنعين ودعاة محترفين!

ومن عناوين الكتاب: سياسة الحرية والكفاح، ذكريات من الريف، في صميم السيرة، نقد وتوجيه، صور من الماضي.

٧ـ عقيدة المسلم

يقع هذا الكتاب في (٢٦٢) صفحة، الطبعة الثالثة، لدار الدعوة عام (١٩٩٠م)، ويحوي بحوثًا ميسرة في العقيدة الإسلامية، معززة بأصولها العلمية، وسائرة في هدي نصوص الكتاب والسنة، وهذا الكتاب يمتاز عن كتب الفلاسفة والمتكلمين في أنه يخاطب العقل والقلب، ويثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظ للقوى الذهنية، وهو عمل حاسم في ميدان الإصلاح النفسي والاجتماعي والسياسي.

ولقد حاول المؤلف؛ وهو يكتب عن العقيدة أن يرطب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية، ولم يتكلف لذلك إلا أن جعل نصوص الكتاب والسنة نصب عينيه، ولذلك أكثر من الاستشهاد بهذه النصوص على خلاف أمهات الكتب الكلامية، التي لا تكاد تعثر فيها على آية أو حديث إلا ما ندر.

ومن عناوين الكتاب: الحقيقة الأولى، الوحدة المطلقة، كمال الأعلى، القضاء والقدر، العمل أساس الإيمان، الخطيئة والمتاب، النبوات، والخلود.

٨ـ خلق المسلم

طبعة دار القلم السادسة، سنة (١٩٨٧م)، في (٢٤٨) صفحة، هذا الكتاب عبارة عن نقول من الكتاب والسنة، توجه المسلم إلى الفضائل، التي يتم بها دينه، وتصلح بها دنياه وأخراه جميعًا، وقد مهد المؤلف لها وعقب عليها بتفاسير موجزة، تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الأعصار من انحراف وهبوط نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل.

ويعد الكتاب حلقة ثانية بعد كتاب (عقيدة المسلم)، ليكون جزءًا من منهج تربية المسلم على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم.

ومن عناوين الكتاب: أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق، نحو عالم أفضل، الإنسان بين الخير والشر، الحدود على الجرائم الخلقية، دائرة الأخلاق تشمل الجميع، الصدق، الأمانة.. القصد والعفاف، النظافة والتجمل والصحة، اختيار الأصدقاء، العلم والعقل، الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن.

٩ـ التعصب والتسامح بين المسيحة والإسلام

يقع هذا الكتاب في (٣٦٦) صفحة، من منشورات دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية (١٩٩٣م)، قام أحد المسؤولين المسيحيين بالطعن في الإسلام، فتصدى له الغزالي في ذلك الوقت العصيب، فكان هذا الكتاب، وقد تعمد الشيخ ألَّا يذكر اسم الطاعن حتى يموت في مهده، إن الأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام، وقد أَلِفَ هذا الدين منذ بدأ أن يعاشر غيره على المياسرة واللطف، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد، والإسلام لم

يقم على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر بأموالهم وأعراضهم ودمائهم.

وأهم موضوعات الكتاب: المسلمون وأهل الذمة، دخول المسيحية مصر، الإسلام بين التعصب والتسامح، افتراءات المستشرقين على الإسلام، تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى.

١٠ـ فقه السيرة

يقع في (٤٩٨) صفحة الطبعة الأولى لدار الريان للتراث في القاهرة عام (١٩٨٧م).

كتب الشيخ هذا الكتاب وهو دامع العين، جياش المشاعر، وقد كتب معظمه في الروضة الشريفة في المسجد النبوي، وبعضه في مكة أمام الحرم، واعتمد المؤلف فيه على الكتاب والصحيح من السنة والعقل الراشد، وقد سمح الغزالي للشيخ ناصر الدين الألباني بتحقيق الأحاديث الواردة في الكتاب، وحكم على بعض الأحاديث بالضعف، لكن الشيخ لم يتردد في إثبات رأي الألباني شاكرًا له جهده، وموضحًا وجهة نظره في هذه الأحاديث، جمع الغزالي في كتابه هذا بين طريقة المؤرخين المحدثين، الذين يميلون إلى التعليل والموازنة، وربط الحوادث في سياق متماسك، وطريقة القدامى، الذين يعتمدون حشد الآثار وتمحيص الأسانيد، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع.

وبذلك جعل المؤلف بهذا الجمع من تفاصيل السيرة موضوعًا متماسكًا يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزع النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع.

وبذلك كانت السيرة عنده شيئًا ينمِّي الإيمان، ويزكي الخلق، ويلهب الكفاح، وهو يكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده أو تلميذ عن أستاذه.

وقد جاء الكتاب في تسعة فصول هي: رسالة وإمام، من الميلاد إلى البعث، جهاد الدعوة، الهجرة العامة، أسس البناء للمجتمع الجديد، الكفاح الدامي، طور جديد، أمهات المؤمنين، الرفيق الأعلى.

١١ ـ في موكب الدعوة

يقع في (٢٦٢) صفحة، طبعة دار الكتاب العربي، الثانية عام (١٩٥٧م)، في هذا الكتاب يستثير الشيخ الغزالي مشاعر الدعاة، ويستنهض هممهم ويستصلح أوضاعهم، فحارب الوهن، ولم يكتب الشيخ هذا الكتاب ليعبر عن مذهب خاص به في الحياة، وإنما ليبرز رأي الإسلام فيما اعترضه من شؤون.

ويظهر الشيخ في هذا الكتاب حزنه؛ لأن تخلف بعض القادة ـ في ميدان الدعوة ـ واضطراب أقدامهم في ميدان الواجب يعثر القوى الإسلامية ويربكها.. والكتاب في جملته نقد لسياسة الجبهة الإسلامية الداخلية؛ باعتبار أن تراخي تلك السياسة واعوجاجها مكن للدجالين والمنافقين.

من أهم عناوينه: موت الأبطال في الطريق، من صور القوة في القرآن، الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة، من أخلاق النبوة، هل الحكم الشرعي كلام فارغ؟ نعم.. دين الدولة الإسلام، الإسلام جامعة، جهاد وتربية، استغلال، فتنة لا تعليم، تحريف الكلم عن مواضعه، ذكرى.

١٢ـ ظلام من الغرب

يقع في (٣٤٣) صفحة، صدرت الطبعة الثانية عام (١٩٦٥م)، عن دار الكتب الحديثة، الكتاب رد على «المستشرقين المصريين» الذين ولدوا في بلادنا لكن عقولهم تربت في الغرب، فهم كفار بالعروبة والإسلام وسفراء للغرب، يهدف الكتاب إلى تجلية هذا الصنف من المستشرقين وتنحيته عن الحياة العامة.

ويتتبَّع المؤلف في الكتاب الحركات العليلة، والنيات المدخولة والمحاولات المستمرة للنيل من مكانة الدين وإظلام مستقبله، على يد هؤلاء؛ إما عن فساد في عقولهم، أو فساد في ضمائرهم، ويثير المؤلف كل ذلك لصد الجاهلية الحديثة عن اجتياح ديننا وأمتنا.

من أهم عناوينه: بين العقل والعاطفة، عروبة وإسلام، تيارات متدافعة، في ميدان التشريع، جاهلية حديثة، كيف تصان الأخلاق، الأمم بين النماء والفناء، نحو وحدة إسلامية كريمة، الإسلام والمدنية الحديثة.

١٣ـ جدد حياتك

يقع الكتاب في (٢٣٢) صفحة، طبعة دار الدعوة، الأولى لسنة (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

وهو مقارنة بين تعاليم الإسلام وبين أصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك، وهو محاولة لرد كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) للعلامة: ديل كارينجي إلى أصوله الإسلامية.

وقد شرح المؤلف فيه وظيفة الفطرة السليمة في تعرف الحق وتعريفه،

ذلك أن كثرة البضاعة من نصوص السماء، لا تغني في نفع صاحبها، أو في نفع الناس بما عنده إذا كان ملتاث الطبيعة مريض الفطرة، كما لا ينفع المنظار المقرب، أو المكبر لدى امرئ فقد بصره، بينما سجلت الفطرة السليمة في كتاب «كارينجي» من التجارب والاختبارات ما يعد صورة لحكمة الوحي على لسان رسول الإسلام، فاتفق بذلك وحي التجربة ووحي السماء.

ومن عناوين الكتاب: عش في حدود يومك، كيف نزيل أسباب القلق، آفات الفراغ، لا تبك على فائت، لا تنتظر الشكر من أحد، روحانية الرسول، بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك، حاسب نفسك.

١٤ـ ليس من الإسلام

يأتي الكتاب في (٢٦٢) صفحة، وقد صدرت الطبعة السادسة منه عام (١٩٩١م) عن مكتبة وهبة بالقاهرة، وفي هذا الكتاب رغبة أصيلة لدى المؤلف في تمكين المسلم من أن يحيط علمًا بأصول لا بد منها، وفروع لا غنى عنها تتصل بالإسلام، وتبتعد لغة المؤلف هنا عن المصطلحات الفنية مجتهدًا في التقريب والتوضيح.

اهتم المؤلف بإبعاد الزوائد الضارة، التي أضافها المسلمون إلى دينهم، كما اهتم بضبط المعارف الدينية في حدود أحجامها الصحيحة، فلا نقص ولا ضم، ولا انكماش ولا تهور، مقتفيًا آثار البدع والخرافات فيفضحها.

ويريد المؤلف أن يوسع آفاق الثقافة الإسلامية وييسرها لمن شاء، ويرفع من أمامها العوائق، ويقرب من جماهير المسلمين ألوانًا من العلم

حرموا منها، وينبغي أن تكون بينهم شائعة متداولة؛ فإن ا لتعليم الرحب المحدود أفضل في خدمة الإسلام وإعزاز أمته من التعليم الفني الذي يبقى حكرًا على المتخصصين. ويرى أن هذا الكتاب سوف يغضب بعض الجامدين الذين لا قدم لهم في علوم الدين، وسوف يرون الكتاب امتدادًا لجهاد أئمة طال كفاحهم في إيقاظ العقل الإسلامي.

وأما أبرز عناوين الكتاب فهي: الشريعة الإسلامية، أهداف ومناهج، اختراع في الدين، في الفكر الإسلامي، من بدع العقائد: وحدة الوجود، النزعة القومية، بدع العبادات، بدع العادات.

١٥ ـ من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث

يقع الكتاب في (٢٠٠) صفحة (دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ)، يرى المؤلف أن ما أصاب الإسلام في عصرنا هذا وفي العصور التي سبقته، لا يسأل عنه أعداؤه قدر ما يسأل عنه أبناؤه؛ ذلك أن الخمول والتفريط والقصد المدخول والشهوات المطاعة، لا يمكن أن يتنزل عليها نصر الله.. خصوصًا إذا فشت هذه الرذائل في جبهتنا، وكانت الجبهات المقابلة ظاهرة النشاط والتجرد، والغزالي في هذا لا يلوم قومه فحسب، وإنما يسارع إلى الاعتراف بتقصيره؛ لكنه يؤكد أنه لن يتوانى عن موقفه في كشف الأخطاء التي انتشرت بين صفوف العاملين لهذا الدين؛ ولذلك فهو يعيد نشر هذا الكتاب والكتاب الآخر في موضوعه ـ وهو دفنها ـ لكنه يرى أن من الخطل إسدال الستار عليها، فهي جزء من تاريخ يجب تدبر أحداثه والإفادة منها.

ومن موضوعات الكتاب: سنن مطردة (حقائق العلاقة مع بني

إسرائيل)، ضد الإسلام (أقلام تحارب الإسلام تحت ستار محاربة التعصب)، دروس: (الإسلام مقياس الحكم والتقويم)، السلام المسلح، العلم يدعو إلى الإيمان، بين الغيبة والنقد، طبيعة الإسلام.

١٦ـ كيف نفهم الإسلام

يقع في (٢١٨) صفحة، صدر عن دار الدعوة، الطبعة الأولى عام (١٩٩١م)، في هذا الكتاب إجلاء لمعارف إسلامية صحيحة طويت عن الأمة أو عرفها القليل، وكان ينبغي أن يعرفها العامة، ومحاولة لتغيير ودحض خرافات علمية وخلقية وعقدية فشت في كل البقاع وتوطنت، وما كان ينبغي أن تظهر ولا أن تبقى طويلًا، وإحياء لتقاليد إسلامية عريقة لو سمع بها الجمهور لفغر فمه في دهشة، فهي غريبة عليه، بينما حلت مكانها تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا حاولت تغييرها سمعت صيحات الفزع، كأنك تغير مآثر الدين لا مآثر الجاهلية.

من أهم عناوينه: حول التعريف بالإسلام، مساوئ التعليم الديني، علوم الحياة ونشاطها، الجهل بالدنيا والسقوط فيها، الانفصال التاريخي بين العلم والحكم، العقيدة صلة إلهية ومنهج إنساني، التجديد والاجتهاد، في دائرة السنة، لماذا أنا مسلم؟

١٧ـ الاستعمار أحقاد وأطماع

يقع الكتاب في (٢٦٨) صفحة، مطبعة حسان، الطبعة الثالثة (١٩٨٣م)، يتحدث الكتاب عن أكبر أعداء الإسلام وأشدهم خصومة ويصف مآسيه، يورد أحداثًا مخزية عن أفاعيل الاستعمار، ثم يبحث في

الإسلام والسلام، ليعرف الناس أي عدل مضاعف كان لدينا، وأي حيف مضاعف وقع علينا! ويعرض لحركة الارتداء الخلقي والثقافي والتشريعي التي أحدثها الغزو الثقافي في بلادنا.. لحساب الصليبية الغازية.. فالاستعمار أحقاد دينية وأطماع دنيوية.. ولم تعرف الدنيا أناسًا أوتوا المقدرة على إخفاء أحط النيات وراء معسول الكلمات، كما عرفت ذلك في تجار الاستعمار الحديث.

ويؤكد الغزالي أن مستقبل أمتنا لن يضيء إلا إذا نجا من حقد الحاقدين، وطمع الطامعين.

من عناوين الكتاب: كيف يفتكون بنا؟ تهويد وتنصير، القتل أو الاستغلال، سلام مسلح، حول قيام إسرائيل، أمريكا الصليبية، الحياد.. كما نفهمه.

١٨ ـ نظرات في القرآن

يقع الكتاب في (٢٥٤) صفحة، الطبعة السادسة، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة (١٩٨٦م)، وهو الكتاب الثامن عشر في ترتيب مؤلفات الغزالي، وفيه جملة معارف حسنة عن القرآن المجيد، تضمنت ثمرات من غراس الأئمة الأقدمين والعلماء المحدثين، وشدها جميعًا نظام يوائم الأسلوب الذي استحلاه المثقفون اليوم وألفوه في مجالي العلم والأدب.

ويمس الكتاب قضايا دينية واجتماعية تشغل بال المسلمين خاصة، وبال العالم عامة، فإن العلم المعزول عن الواقع لا سبيل له في كتب الغزالي

ولا في لبه، والقرآن نفسه كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبدًا، فما نزل إلا ليخطِّئ أو يصوب من أفكارها، وإلا ليمحو أو يثبت من أحوالها.

ومن عناوين الكتاب: هذا القرآن: كيف نزل؟ ولماذا خلد؟ وكيف جُمِع؟ نماذج وصور في القرآن: الإنسان، الحياة، الثروة، والألوهية، والنبوة، والقصص. الإعجاز القرآني: النفسي والعلمي والبياني، القرآن وأهل الكتاب، ودراسة حول النسخ.

١٩ـ مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة

الطبعة الأولى لدار القلم بدمشق (١٩٨٩م)، هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة، ألفه الشيخ الغزالي لهم، ودرس جملة من أبوابه معهم، حين كلفته مشيخة الأزهر بأن يحاضر لطلبة الدعوة والإرشاد، ويتضمن عددًا من الفصول في كل منها مباحث عديدة.

ومن عناوين فصوله: التعريف بالدعوة، السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين، حملة الدعوة، وسائل الدعوة، مقاومة الهدامين، نماذج حية في وجوه الدعوة من القرآن والسنة، وأقوال الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة.

٢٠ـ معركة المصحف في العالم الإسلامي

يقع الكتاب في (٣٥٧) صفحة، الطبعة الثانية، من منشورات دار الكتب الحديثة، وهذا الكتاب هو جهد رديف للجهود المبذولة للدفاع عن المصحف المُهاجم وأمته المعناة في أنحاء الأرض، إنه كتاب لا يخص

قطرًا إسلاميًّا بعينه، بل إنه يتناول حاضر ومستقبل أمة عاث الاستعمار السياسي والثقافي في أرجائها فسادًا.

يرى المؤلف أن المسلمين يعتقدون أن ما بين دفتي المصحف هو مراد الله من عباده، وأنه يمثل قواعد الدين الواحد الذي جاء به جميع المرسلين، وهو الوحي الذي سيصحب الإنسانية حتى النهاية، وأن المصحف سورة تامة للحق في العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة تكفل للأمم معاشها هنا ومعادها هناك، ومقالات هذا الكتاب استهدفت مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله عن طريق ثورة الشعوب، وخلق الأمل في النجاح، وتأسيس الحياة الاجتماعية والسياسية على أصول الإسلام.

ومن أهم عناوينه: المصحف للنفس والمجتمع والدولة، العبادات وسلطان الدولة، الإسلام يصبغ الحياة العامة في أغلب تاريخه، حراسة الحق معيار الإيمان، التجديد الإسلامي في ميدان السياسة، هذا الاستعمار الثقافي، حول مركز المرأة في المجتمع.

٢١. كفاح الدين

يقع في (٣١٢) صفحة، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة (١٩٩١م)، أظهر المؤلف في الكتاب ما يقع للإسلام وأهله من أذى، حيث تنجح سياسة الاستعمار في إقامة حكومات موالية لها، وتتبع آثار الاستعمار في البلاد التي أكره على الرحيل منها، وكيف أنه طوى بساطه من بعض الأراضي وبقى ممدود الرواق في نفوس لا يزال يحتلها، ويلقي خيامه فيها، وذكر أمثلة عديدة على ذلك ونماذج متنوعة.

تحدث المؤلف في مقدمة الكتاب عن شعوره بأن الأمة قد وصلت إلى مرحلة عظيمة نحو التخلص من الاستعمار، وأن يقظة العروبة وآمالها وحقوقها أصبحت حركة ناجحة، وناقش الجوانب الإسلامية في مفهوم القومية العربية والحياد الإيجابي اللذين كان يتحدث عنهما الرئيس جمال عبد الناصر، بما يكشف عن سعادة الشيخ الغزالي بهذه الشعارات وامتداداتها، لكنه حذر في هجوم قوي الرؤوس الفارغة من الدين، التي تجعل من هذه الكلمات غطاءً لما رسب فيها من بقايا الاستعمار، ويؤكد أن هذه الشعارات لا يمكن أن تغلب الطابع الأجنبي، أو تهون من الروح الديني، أو تضعف الأدب العربي، أو تشوه التاريخ الإسلامي، وتسوغ الانحلال الأخلاقي؛ لأن ذلك يعد خروجًا عن الدستور، وتعويقًا لثورة البلاد.

ويبدو أن تلك القوى المعادية التي أفرغت الشعارات من مضمونها الإسلامي هي التي قادت مصر في عهد جمال عبد الناصر إلى ما انتهت إليه مصر من التمكين للفاسدين المفسدين، الذين قادوا مصر إلى الردة، فكتب الغزالي في مقدمة كتاب (قذائف الحق)، يؤكد أن جمال عبد الناصر كان أداة رائعة في يدى القوى العالمية الحاقدة على الله، وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله كرومر.

ومن عناوينه: التعاون بين الإسلام والمسيحية، اتجاه الصليبية الحديثة، ثقافة مهجورة، في عالم الملذات.

٢٢ـ الإسلام والطاقات المعطلة

يقع في (٢١٤) صفحة، الطبعة الرابعة، من منشورات دار الكتب

الإسلامية بالقاهرة (١٩٨٣م)، في الكتاب مقارنة بين طبيعة دين، وواقع أمة، اعتمد فيها المؤلف على المعروف من مبادئ الإسلام، والمألوف من حياة المنتمين إليه، ويلمس القارئ بُعْدَ الشُّقَّة، ويرى أسباب التفاوت.

ويؤكد المؤلف أن أمتنا تنتشر فوق بساط من الأرض الطيبة، التقت فوقها مقاليد الدنيا ومفاتيح العمران، وفي قبضة يدها رخاء العالم، ولو أحسنت استغلال ما تملك، لما احتاجت إلى أحد، ولا حتاجت سائر الأمم إليها. فإن شرايين الحياة الاقتصادية للقارات تبدأ منها وتنتهي إليها.

كل ذلك إضافة إلى الغنى الأدبي الذي تملكه هذه الأمة بما تحمله من رسالة الإسلام، ثم يشرح المؤلف لماذا جمدت الأمة وكيف تنطلق وما قيمة مواريثها الروحية والفكرية.

من أهم عناوينه: تفجير الطاقة الإنسانية، فساد عاطفة الدين، الكفر بالإنسان، الاستبداد يشل القوى، أثر الثقافات الرديئة، المرأة في المجتمع الإسلامي، الإسلام أساس حياتنا وسر قوتنا، دين المستقبل، البيان الإسلامي العالمي، أزمات الحضارة المعاصرة، التضامن الإسلامي، أُطُر النظام الإسلامي، تحرير الأراضي الإسلامية.

٢٣ ـ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة

طبعة دار الدعوة (١٩٩٣م) في (٢٦٦) صفحة، يتناول هذا الكتاب ـ الذي كتب في الستينات ـ مبادئ حقوق الإنسان: الحرية، المساواة، العدالة، الكرامة، وبيَّن الكتاب أن الإسلام دعا الناس ـ كل الناس ـ للحياة الكريمة دون تمييز بين جنس أو مال أو لون أو جاه، فقد سوى

الإسلام بين العربي وغير العربي حاكمًا أو محكومًا، وبين الكتاب أن الدول الكبرى لا تلتزم حقوق الإنسان كمكيال ثابت، لكن الإسلام التزم جانب العدالة المطلقة يوم دانت له الأرض، وأن آخر ما وصلت إليه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان حقوق الإنسان هو ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تعلمناها من رسول الإنسانية محمد ﷺ.

من أبرز عناوينه: المساواة العادلة، الحقوق القضائية، الحريات، الرجل والمرأة في المجتمع، كيان الأسرة، الهجرة واللجوء، الكرامة الاقتصادية، المستوى الثقافي، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وحقوق الإنسان في الإسلام.

٢٤ـ هذا ديننا

يقع الكتاب في (٢١٣) صفحة، وهو طبعة مطبعة حسان الثالثة عام (١٩٧٥م)، يأتي الكتاب جامعًا لتعاليم الإسلام مع اتسامه بالإيجاز والوضوح والاستيعاب، وقد أثبت المؤلف في كتابه هذا خلاصات واضحة ومضيئة لما سبق أن تناوله من حقائق الإسلام مع إضافة دلائل جديدة، كما ضم أبوابًا أخرى من البحث والدراسة، تعين على تحقيق رغبة الكاتب في تقديم صورة وسيمة الملامح لهذا الدين العظيم.

وأما أبرز عناوين الكتاب: العقائد، التوحيد، القضاء والقدر، حرية العقل لا حرية الشهوة، حرية الاعتقاد، ضروب العبادات وصورها، الأسرة، الأخوة، الاجتهاد، الإجماع، فقه العبادات، شرائع المعاملات.

٢٥ـ الخديعة: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي

يقع هذا الكتاب في (٢٨٣) صفحة، من منشورات دار الروضة للنشر والتوزيع، عام (١٩٩٣م)، من حق أي مسلم مخلص أن ينفر من التدليس، وأن يَعُدَّ القومية العربية بهذا التفسير الجديد حركة التفاف ماكرة خبيثة للقضاء على شخصية الإسلام وتاريخه، والمحاولات ناشطة للإجهاز على الإسلام، تارة بتسويغ الارتداد عنه عقيدة وشريعة، وتارة بإحلال العروبة مكانه بعد تحريرها من رابطة الإيمان، لتكون مفهومًا ميتًا، ثم افتعال يقظة عربية، وتفسير القومية العربية على هذا الأساس يعد استجابة صريحة للغزو الاستعماري بكل ما يحمله من أحقاد وأطماع.

وإذا كان حديث الغزالي عن العروبة بهذه الحدة في هذا الكتاب، فذلك لأن العروبة التي عرفناها من قديم، وآزرنا نهضتها يوم قامت، واستبشرنا بجامعتها يوم ولدت، شيء آخر عن العروبة التي نسمع الآن لفظها من بعض الساسة والكُتَّاب، فنسمع له رنينًا كرنين النقد المزيف، والمؤلف في الوقت الذي يعبر عن جزعه من هذا الانحراف يلفت النظر إلى خطورة الفوضى الفكرية والاجتماعية، التي أحدثها البعثيون والقوميون بهذا المسلك، الذي كان جسرًا عبر عليه الاستعمار ليعيث فسادًا في أرجاء حياتنا كلها.

ويتناول الكتاب: خصائص العروبة، ودعائم المجتمع، وعصور الازدهار، وعصور الانهيار، وقضية البعث العربي، وقضية الشعوبية في العصر الجديد الحديث.

٢٦ـ الجانب العاطفي من الإسلام

بحث في الخلق والسلوك والتصوف، يقع الكتاب في (٢٩٩) صفحة، طبعة دار الدعوة، الطبعة الأولى (١٩٩٠م)، هذا الكتاب إحياء لجانب مهم من مواريثنا العلمية الثمينة تفتقر له الحياة المعاصرة، وهو الجانب العاطفي والنفسي والخلقي وتكامله مع الجانب العلمي والفكري، وهو محاولة لإخراج التصوف من صومعته؛ ليكون طاقة محركة، ويلفت المؤلف النظر إلى أن هذا الجانب ـ على جلالته ـ مغموط الحق، لم يلق العناية الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى، وميدان التربية الإسلامية في هذا العصر أحوج ما يكون إلى هذه الدراسات؛ فالتعاليم المادية تزحف من كل فج، وتقتحم طريقها إلى النفوس من مسارب لا حصر لها، وإذا لم نحسن البناء الداخلي للنفوس، ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها، فإن الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف.

ومن عناوين الكتاب: في باب الإسلام والإيمان والإحسان: الإلحاد خرافة علمية، قوانين الإحسان وأخطاره، وفي باب دعائم الكمال النفسي: إشارات الطريق: التوبة، الورع، الخوف، الرجاء، الحب.

٢٧ـ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين

يقع في (٢٥٩) صفحة، الطبعة الخامسة، لدار الكتب الإسلامية، عام (١٩٨٨م)، الكتاب مناقشة حرة للمستشرق المجري جولد تسيهر في كتابه (العقيدة والشريعة) الممتلئ بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام، وهذا المستشرق مكث بضع عشرة سنة يقرأ ويتعمق ويحيط بمفاهيم الإسلام، حتى أخرج كتابه بعنوان (العقيدة والشريعة في الإسلام)، وقد

افترى هذا المستشرق ـ باسم التحقيق التاريخي ـ على الإسلام افتراء لا حد له، وأحصى عشرات الشبهات ونظمها في سلك واحد باسم التطور العقدي والتشريعي.

وأعمال المستشرقين يصعب أن تخلو من العيوب؛ فذلك يتنافى مع وظيفة الاستشراق، الذي يمهد للاستعمار، كما تمهد الدبابات الطريق أمام زحف المشاة. وقد كشف الغزالي أن كتاب هذا المستشرق من شر ما كتب عن الإسلام، وأسوأ ما وجه إليه من طعنات، وقد كان رد الغزالي على هذا الكتاب مناسبة لاستيفاء الحقائق العلمية والتاريخية، التي يزخر بها تراث أمتنا.

من عناوينه الرئيسية: محمد رسول الله: الانقياد لله طبيعة الأديان كلها، لا تفاوت بين الإسلام في مكة والمدينة، الهجوم على السنة، تطور الفقه الإسلامي: عموم الرسالة وخلودها، بين الشريعة والقانون الروماني، التطور في العقيدة: معنى المتشابه في القرآن، الزهد والتصوف: الإسلام يخدم الروح والجسد، الفرق،: طبيعة الخلافات بين المسلمين، وراثة الخلافات حماقة، حول الوحدة الإسلامية، المسلمون.. بين الاستعمار والصهيونية.

٢٨ ـ ركائز الإيمان بين العقل والقلب

طبعة دار الاعتصام (١٩٧٣م) في (٢٨٨) صفحة، وضع المؤلف هذا الكتاب لخدمة الثقافة الإسلامية مستهدفًا أمرين، أولهما: إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة، متحريًا الحق جهده، ومتلقفًا الحكمة حيثما وجدها، وماحيًا الشبهة في صمت ما استطاع، وثانيهما:

تبديد الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخنا، وتوقيف القراء على خبيئها، حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يومًا، والكتاب استكمال لما كان قد وضعه المؤلف في كتابه «الجانب العاطفي في الإسلام».

ومن عناوينه: التفاوت بين التقدم الروحي والتقدم العقلي، العلم ظهير الإيمان، الإيمان بالغيب ليس إيمانًا بالوهم ولا إيذانًا بالفوضى، صدق المعرفة ووحدة الوجود، وحدة الوجود خرافة، ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة، فن العزلة والاختلاط، نبوة وكتاب وأمة وارثة.

٢٩ـ حصاد الغرور

يقع في (٢٠٧) صفحات، طبعة المختار الإسلامي، الثانية، عام (١٩٧٩م)، الكتاب رصد لأحوال الأمة العربية قبل الهزيمة أمام اليهود عام (١٩٦٧م) وبعدها، واستشعار لمدى قربها أو بعدها من دينها، ومدى قدرة التيارات الأجنبية على التطويح بها، ورد على التوجيهات الزائفة والتعليقات المنحرفة.

ويؤكد المؤلف أن العراك بيننا وبين بني إسرائيل سوف يمتد سنين عددًا، فإذا أحببنا أن نذوق حلاوة النصر؛ فالطريق إليه بينة، أما إذا كررنا أخطاءنا القديمة، وأساليبنا القديمة، فلن نحصد إلا ثمرات الغرور، وما أبشع مذاقها وأمره!! ويظهر المؤلف قلقه وخشيته على الإسلام نتيجة لموقف العرب من هذا الدين؛ فهم يريدون أن يدخلوا في معركة دينية بغير دين! ومع أن مطارق الهزيمة التي وقعت على أم رأسهم كانت كفيلة بإزالة هذا الوهم، إلا أن عملاء الشيطان يستميتون في مكافحة هذه اليقظة، والحيلولة دون اعتناق العرب للإسلام، كلٌّ لا يتجزأ..

ومن أهم عناوينه: صراع بين رسالتين، يهودية وصهيونية، من أين تهب رياح التغيير، هل عن الإسلام غنى؟ متى تنتهي هذه الأحقاد؟ جذور المعركة القائمة، (القيم الروحية) كلمة غامضة مبهمة، أجيال النصر وأجيال الهزيمة، بواعث الحقد على لغتنا، تفتيت الحقيقة بداية التحول عنها، تزوير التاريخ، مستقبل العلاقات بين الدين والمتدينين، إسلام واحد وإن اختلف الفقهاء.

٣٠ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر

يقع في (٢٠٦) صفحات، صدر عن مكتبة الأمل «بدون تاريخ»، كتب الغزالي كتابه هذا في ظروف صعبة شديدة، حيث كان عدد من الحكومات العربية قد تبنت الشيوعية وتحالفت مع الاتحاد السوفيتي، ويقول في مقدمته: «إنني كتبت هذه الصحائف بالحقائق العلمية والتاريخية، وأوراقها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته، وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام»، وفي حوار شفهي قال عن الكتاب: «كم نصحني من الزملاء والمحبين أن أصرف النظر عن كتابة «الإسلام والزحف الأحمر».. بئست حياة أدفن فيها في جلدي، ويتنطع الظالمون صائلين. لَموت في هذه الحال أشرف وأجل..».

ومن عناوينه: بداية الصراع، الشيوعية والدين، الشيوعية والحريات، الأحوال الاقتصادية في ظل الشيوعية، المسلمون في الاتحاد السوفيتي، الإسلام بين الحياة والموت، فلسطين والشيوعية وواجبنا العام.

٣١ـ قذائف الحق

يقع في (٢٤٢) صفحة، من منشورات المكتبة العصرية بصيدا ـ لبنان ـ (بدون تاريخ)، لكن المؤلف أعد مقدمة الكتاب وهو في الرباط عاصمة المغرب، يستمع إلى أخبار القتال بين العرب واليهود عام (١٩٦٧م).

إن المؤامرة على الإسلام وأمته الغافلة قد أخذت أبعادًا جديدة مخوفة، وإن المصارحة هنا أجدى في رد الخطر، وقتل بوادر الشر قبل أن تستفحل، ويرى المؤلف أن قوى الإسلام قد وهنت، وأمسى الإلحاد ذكاءً والإيمان غباءً، أما كهان البوذية والنصرانية فمكانتهم لا تمس.. وكما استعان الاستعمار العالمي بالكنائس الغربية على إذلال الإسلام من قبل فإنه يوسع دائرته ليشرك الكنيسة الشرقية في ذلك، ويعد الغزالي بأنه في هذا الكتاب يلتزم جانب الدفاع، ومستعد لوقف المعركة إذا توقف المعتدون.

من أهم ما جاء فيه: العقل أولًا.. ثم ننظر فيما يقال، العهد القديم وافتراءاته على المرسلين، تحرك ضد عقيدة التوحيد، ماذا يريد الأقباط؟ الإسلام وجماعة الإخوان، صفحات من مذكرات معتقل، الحقائق تدلكم، نحن نريد الحفاظ على وحدة مصر الوطنية، القومية العربية ومعناها، حديث الذباب، الدعوة الإسلامية وسياسة بعض الحكام، العقيد الناصري، سياسة الحكم والمال في الإسلام، العرب بدون الإسلام صفر، لا دين حيث لا حرية، محنة الضمير الديني هناك.

٣٢ـ الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر

يقع في (٢١٠) صفحات، طبعة مكتبة وهبة، الثالثة، عام (١٩٩٠م)،

ألف الغزالي هذا الكتاب استجابة لطلب جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، بمناسبة انتهاء القرن الهجري الرابع عشر، وقد ضمنه وصف العلل التي تكتنف الدعوة والدعاة في شتي الأقطار والأمصار، ويتهيأ الشيخ الغزالي في هذا الكتاب لاستقبال القرن الخامس عشر بإلقاء نظرة على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال ذلك الماضي الطويل؛ لنحاكم أنفسنا إلى مبادئها الثابتة، ولنعرف ما لنا وما علينا بدقة، كما قدم فيه وصفًا لشُعَبِ الهجوم المعاصر على الإسلام، والطريقة المثلى لمواجهته في شتى الميادين.

ومن أهم عناوينه: شبهة مردودة، الدعوة وأحوال الدولة الداخلية، الأتراك والعرب والدعوة الإسلامية، أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، ذبول الأدب العربي، الفساد السياسي، أبعاد الهزيمة الإسلامية، كيف تصدى الدعاة لهذه الغارة؟ ولاؤنا لمن؟ الأبعاد الجديدة: بعدما صعدوا هبطنا.

٣٣ـ فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء

يقع في (١٧٩) صفحة، من منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت الطبعة الثانية (١٩٨٠م) في هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، هو جانب الذكر والدعاء، فمن يقف بين يدي النبي الخاتم ﷺ ـ ويدعو ربه ـ يشعر أنه أمام فن في الدعاء، ذاهب في الطول والعرض لم يؤثر عن مثله من المصطفين الأخيار، وهذه حقيقة علمية رأى المؤلف أن يثبتها في هذا الكتاب.

ومن أهم عناوينه: كيف عرَّفنا محمد بالله؟ الحب أساسه والشوق مركبه (يصف فيه قوة العاطفة ودفقها في مناجاته عليه الصلاة والسلام)،

أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة (يتأمل فيها صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام)، أرق الدعوات بعد الطعام والشراب، مجالس النبوة، ليل أبيض (يصف فيه عبادة الليل)، في خضم الحياة (دعوات تتناول شؤون الحياة المختلفة)، بناء البيت المسلم، معركة الخبز (دور الذكر عندما تضطرب أحوال العيش)، في السفر والعودة متاعب الدنيا، هل الدعاء من الأسباب العادية؟ الأركان العامة (أركان الإسلام وأدعيته عليه السلام فيها)، ذكر وتذكير، نبي الرحمة ونبي الملحمة.

٣٤ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين

يقع في (٢٣٩) صفحة، طبعة دار القلم، الأولى، عام (١٩٨٧م)، ملهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنا، الذي يصفه الغزالي بأنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري؛ فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل وتوضح الهدف، وهذا العمل هو تأصيل لتلك المبادئ، وشرحها على ضوء تجارب المؤلف المستفادة خلال أربعين عامًا في ميدان الدعوة، حيث إن الظروف التي بدأ فيها حسن البنا دعوته ما تزال قائمة مع خلاف طفيف حينًا وكثيف حينًا آخر.

وإذا كانت الأصول العشرون للإمام البنا هي المبادئ التي خاطب بها الجماعات الدينية في مصر على عهده، من أجل التأليف والتقريب بينها، فكانت مصوغة صياغة وسطية حكيمة، فإن الغزالي في هذا الكتاب قد أضاف إلى هذه المبادئ عشرة مبادئ أخرى، تختص بجوانب حياة المجتمع الإسلامي في داخله وفي علاقاته بغيره من المجتمعات، وتتعلق هذه المبادئ بوضع المرأة، وطبيعة الأسرة، وحقوق الإنسان، ووظيفة الحكام،

وأساس الحكم، وطبيعة الملكية، ووظيفة الدعوة الإسلامية، والعلاقة بغير المسلمين، والمواثيق الدولية، والتعاون الدولي ودور المسلمين فيه.

من أهم عناوين الكتاب: هيمنة الإسلام على الحياة كلها، الكتاب والسنة معًا، بين النص والمصلحة، أخبار الآحاد ووزنها العلمي، الاجتهاد الفقهي علامة صحة، التعصب المذهبي، نحو سلفية واعية، الخلافات الموروثة: قيمتها وأثرها، التوسل: ما يجوز منه وما لا يجوز، الانحرافات النفسية والبدنية، الحب والبغض في الله.

٣٥ـ واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر

يقع هذا الكتاب في (٨٠) صفحة، صدر في القاهرة عن دار ثابت، عام (١٩٨٤م)، يتناول الكتاب قضية المؤامرات التي تدبر لهذا الدين ولأتباعه، والجهود التي تبذل لصرف المسلمين عن دينهم وتراثهم وعقيدتهم، حتى يزول ويتلاشى، ويتحدث عن واقع العالم الإسلامي وانهياره أمام هذه القوى والمؤمرات، ويشير بوجه خاص إلى قضايا الاستبداد السياسي والفساد الإداري، وامتهان حرية الرأي، وحقوق الإنسان المهدورة في واقعنا الإسلامي، والفرق الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين.

٣٦ـ مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

يقع في (١٤٣) صفحة، صدر عن دار نهضة مصر للطباعة والنشر، عام (١٩٩٦م) (الطبعة الأولى)، وهو متابعة للنشاط الإسلامي المعاصر، ودراسة شاملة لأسباب تقهقر المسلمين المدني والعسكري، والعناصر

الحيوية التي فقدوها حتى دهاهم ما دهاهم، وفي الكتاب نماذج لقضايا خاضها أو سيخوضها العاملون في الحقل الإسلامي.

ومن عناوينه الرئيسية: صور جديدة وعديدة للأعمال الصالحة، في الثقافة والتربية والأخلاق، كلام في الإسلام، محنة اللغة العربية والأخطار التي تكتنفها، بين الاعتدال والتطرف، المتاجرة بالخلاف خيانة عظيمة، فقه الدعوة الإسلامية ومشكلة الدعاة.

٣٧ـ هموم داعية

يقع الكتاب في (١٧٣) صفحة، من منشورات دار البشير، القاهرة، الطبعة الثانية (١٩٨٥م)، في الكتاب نماذج محدودة لمثار الشكوى ومصدر هموم الداعية، حيث إن الثقافة الإسلامية المعروضة تحتاج إلى تنقية شاملة، والدعاة والعاملين في الميدان التقليدي يجب أن يغربلوا لينعدم السقط، وينفى الغلث.

ومن أبرز عناوين الكتاب: السلفية التي نعرف ونحب، لا سنة من غير فقه، هم بنو إسرائيل فبنو من نحن؟ أحوالنا العامة قبل الهزائم التاريخية الكبرى، عدوان من البشر أم عقاب من القدر، عوائق مزعومة أمام الإسلام، أين الإسلام في هذا الركام؟ مستقبلنا رهن بوفائنا لديننا، حقائق خفية وراء حرب تعيسة، على مسار الدعوة.

٣٨ـ مائة سؤال عن الإسلام

يقع هذا الكتاب في مجلدين، وهو من منشورات دار ثابت للنشر

والتوزيع، عام (١٩٨٤م)، ويتضمن هذا الكتاب مائة سؤال في نواحي الإسلام المختلفة، حيث يقوم الشيخ الغزالي بالرد عليها، وكلها من أهم الموضوعات التي تدور حولها استفسارات المسلمين.

ومن الموضوعات التي وردت الاستفسارات عنها: الإجماع في الإسلام، والمعالم الأولى للدولة الإسلامية، ومتى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟ وهل ينبغي في عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟ وما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان، وما العلاقة بين الإسراء وبني إسرائيل؟ وهل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟ وما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو لها؟ وما هي نظم الحكم في الإسلام؟ وما موقف الإسلام من تحديد النسل؟ وما حكم النقاب في الإسلام؟

٣٩ـ علل وأدوية

يقع في (٢٨٣) صفحة، الطبعة الأولى من منشورات دار الدعوة بالقاهرة، عام (١٩٩١م)، يتناول دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء.

ومن أهم عناوينه: الإنسان في القرآن، كيف غير الإسلام مسار العالم؟ أولو الألباب في كتاب الله، وجهة نظر في أقدار الرجال: مالك، محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، مدرسة رائدة وإمام ضخم، عندما يكون الإلحاد أذكى، الإسلام وحده يجب أن يبعد، ضرورة هتك الأسرار، شائعات في ميدان العلم، المعالم الأولى في عظمة محمد ﷺ، رحلة من

العلم إلى الإيمان، التعليم الأصلي، أسرار وراء تخلفنا، وظيفتنا العالمية، الثقافة الإسلامية في محنة، الأمانة في نقل التراث.

٤٠. مستقبل الإسلام خارج أرضه. كيف نفكر فيه؟

يقع الكتاب في (٢٠٢) صفحة، نشر دار الشروق، الطبعة الأولى (١٩٨٤م)، يحاول الكتاب أن يجيب عن أسئلة مهمة مثل: هل أدى المسلمون رسالتهم في إبلاغ الإسلام ونفع الناس به؟ وهل تقوم الدعوة الإسلامية على سياسة مرسومة وأجهزة منظمة وجهود منسقة، ودراسة لأحوال الأمم التي ندعوها؟ وهل نحسن عرض أنفسنا على الآخرين؟ أم أننا نظلم الرسالة الخاتمة بسوء العرض حينًا، وبسوء الفهم حينًا آخر؟

من عناوين الكتاب: غربلة المعارف قبل تقديمها إلى الناس، شخصية المسلم المعاصر، هل تفيد الدعوة؟ لكي تنجح دعايتنا، أهل القرآن وأهل الحديث.

٤١. قصة حياة

مخطوطة بخط اليد: يتحدث الكتاب عن حياة الشيخ محمد الغزالي، ويحكي لنا كيف برز إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام وفي أيام كئيبة، كان الإنجليز فيها يحتلون مصر وأقطارًا أخرى فيحاء من أرض الإسلام الجريح، وكيف كان القرن الذي ولد فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف، فلم يبلغ سبع سنين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال قد رمى «الخلافة الإسلامية»، فأصبحت شبحًا لا روح له.

ثم يتكلم المؤلف عن تعليمه الديني والمدني، وعن الاضطرابات السياسية التي عاصرها، حيث يتحدث عن تعطيل الدستور على يد محمد محمود باشا.

ثم إلغاء الدستور على يد إسماعيل صدقي باشا عندما تولى الحكم، ثم الإتيان بدستور جديد.

ومن عناوين الكتاب: ذكريات الطفولة، تعليمه الديني والمدني، من السجن إلى المعتقل، الانتفاع بالحريات الديمقراطية، الأصول السياسية، جماعة الإخوان المسلمين.

٤٢ـ سر تأخر العرب والمسلمين

طبعة دار الريان للتراث (١٩٨٧م) في (١٨٧) صفحة، لاحظ المؤلف أن مشكلات الدعوة الإسلامية تتكرر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، فأزمة الدعاة الواعين شديدة، وأهل الذكر الجامعون بين القراءة والفقه قلة نادرة، والمسلمون الحريصون يسيئون أحيانًا إلى أنفسهم وأهليهم.. لأنهم يدركون الأمور على غير وجهها، أو تملكهم العاطفة المنفصلة عن التعقل، فتضر ولا تنفع.

والكتاب محاولة لاستجلاء الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وتراجعهم.

ومن عناوين الكتاب: أين الخلل؟ بعض سنن الله الكونية من القرآن، أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية، العلم المغشوش، حد أدنى لثقافة المسلم، مرتبة أخرى من المعرفة الدينية، جيل يذهب ضحية

العجز والغدر، أحوال اليوم وآمال الغد، الوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة.

٤٣ـ الطريق من هنا

يقع الكتاب في (١٦٠) صفحة، وهو من منشورات دار الشروق، الطبعة الثالثة (١٩٩٢م)، في هذا الكتاب صور متنوعة لمفارقات بين واقعنا وديننا في الماضي والحاضر، يدعو الشيخ إلى أن تجد حظها من التدبر والوعي، فإن المستقبل ـ كما يقول ـ منوط بهذه اليقظة.

ومن أهم العناوين فيه: دعوات تائهة في أمة مهددة بالضياع، لماذا جفت ينابيع هذا العلم؟ قضية الأخلاق عندنا في عالم المرويات، أمة الجد يجب أن تؤدي رسالتها، أما لهذا الحقد من حد؟! حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ، الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع.

٤٤ـ جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج

يقع في (١٩٢) صفحة، صدر عن دار الصحوة (بدون تاريخ)، مجمل الكتاب أن الجهاد الإسلامي هو دفاع عن الأرض والعرض، والحاضر والمستقبل، والتاريخ والشخصية، والدين والدنيا، ولا يقتصر الإسلام على الطبيعة العسكرية؛ فالانتصار لله ورسوله يكون في ميدان الإعلام، وفي ميدان المال والعلم، مدنيًّا كان أو عسكريًّا، وفي ميدان السياحة والكشوف، وفي ميدان المساعدات والخدمات الاجتماعية.

ومن أهم عناوينه: واقع لا نتجاوزه، أوهام سيئة، تأويلات الجاهلين، ما يسمونه آية السيف، الإسلام هو الأساس الشرعي للحكم في أي بلد إسلامي، الجيش الذي لا يقهر أكذوبة لها تاريخ.

٤٥ـ الحق المر

صدرت للمؤلف بهذا العنوان خمسة أجزاء عن دور نشر مختلفة وبطبعات عديدة، وهي حصاد ثمرات قلم الشيخ الغزالي، ومع أنها كلمات قصيرة، لكنها فواتح لمعانٍ جمة عند أولي الغيرة على دينهم وأمتهم.. تغوص في واقعنا الحي لتشد أزر المجاهدين في سبيل الله، وتحق الحق وتبطل الباطل، وستظل هذه الكلمات وميضًا يبرق بالإيمان، ويحامي عن الحق، وهذه السلسلة من الكتب مجموعات من مقالات قصيرة ذات موضوعات شتى تستمد سطورها من الواقع وما يستجد على الساحة من قضايا، وتستهدف إثارة الوعي الكامن في أفئدة المؤمنين، وحسبها أن تكون كضوء البرق الذي يكشف الظلام ويوضح الطريق، وما أكثر الأخطاء التي تستقر بين الناس؛ لأنها لم تجد من يصححها، إن الجهل بالحقيقة له دخل كبير في صياغتها، عندما ينطلق الخطأ داخل قذيفة، فلن تجدي في مقاومته إلا قذيفة مثله، ولا بد أن يكون للدعوة الإسلامية جهاز واحد يقظ، يكشف كل شبهة ويرسل الرد السريع على كل تساؤل مريب، فلا يدع فرصة لتلبيس أو فرية.

٤٦ـ الغزو الثقافي يمتد في فراغنا

يقع هذا الكتاب في (٤٢٤) صفحة، الطبعة الثالثة لدار الشروق، عام

(١٩٨٥م)، وينطلق الكتاب من فرضية أن هناك فراغًا حقيقيًّا في النفس الإسلامية المعاصرة؛ لأن تصورها للإسلام طفولي وسطحي، يستقي من عهود الاضمحلال العقلي في تاريخنا، وكأن بينه وبين عهود الازدهار ترة، ويصرح المؤلف أنه ـ ومن منطلق إسلامي ـ يرفض التبعية النفسية للآخرين، وكذلك يرفض ما ينسب للإسلام من تصورات وهي ليست منه، والكتاب يصارح المسلمين بما هم عليه من قصور في الفهم يسهم في تسهيل الغزو الثقافي الخارجي.

ومن موضوعات الكتاب: الإسلام دين المفكرين، التحدي الثقافي، دين يكره الحضارة وحضارة تكره الدين، غزو مزدوج وأمة تافهة، أمة وراثة أم وراثة أمة؟ نباتات سامة في حقول الإصلاح، متناقضات قاتلة.

٤٧ـ المحاور الخمسة للقرآن الكريم

يقع في (٢٤٤) صفحة، طبعة دار الصحوة الثانية، (١٩٨٩م)، يعالج الكتاب المحاور الخمسة التي أفاض القرآن بذكرها، وانتهى المؤلف إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها، وهذه المحاور هي:

المحور الأول: الله الواحد، من عناوينه الفرعية: التوحيد، القدر والجبر، في القرآن الكريم تنقية للعقائد والسلوك.

المحور الثاني: الكون الدال على خالقه، من عناوينه الفرعية: الروحانية في الإسلام، ارتباط الذكر والدعاء بمشاهد الخليقة في الأرض والسماء، هل عزلة المؤمن هي الحل؟

المحور الثالث: القصص القرآني، من عناوينه الفرعية: أبعاد

الإسلام النفسية والاجتماعية، التعصب للعرب، قصة العلم والحكم في تاريخنا.

المحور الرابع: البعث والجزاء، من عناوينه الفرعية: أحوال الناس يوم الحساب، طبيعة الجزاء الأُخروي، الأدلة الشاهدة على أن البعث حق.

المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع، من عناوينه الفرعية، الحضارة المعاصرة نحيفة الخلق، الإحسان، الربا، خيانة وغدر.

٤٨ـ السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث

يقع الكتاب في (١٦٠) صفحة، الطبعة الأولى لدار الشروق، عام (١٩٨٩م)، وهو من ا لكتب التي كلف الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ تأليفها من المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وذلك إنصافًا للسنة النبوية، وذودًا عنها جرأة القاصرين وذوي العقول الكليلة.

وفي هذا الكتاب توجيه للذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية، وهم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علمًا بعد قراءة عابرة أو عميقة، وفي الكتاب درس للذين يعرفون من الإسلام قشوره، ونسوا جذوره.

ولقد ساهم هذا الكتاب في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، وكان له أثر حميم عند كثير من المسلمين والمسلمات الذين ردت إليهم حلاوة الإيمان وبرد اليقين، بعد أن انزاحت عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل.

ومن موضوعات الكتاب: في عالم النساء، الغناء، الدين بين العادات

والعبادات، المس الشيطاني حقيقته وعلاجه، فقه الكتاب أولًا، أحاديث الفتن، وسائل وغايات، القدر والجبر.

٤٩ـ قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة

يقع الكتاب في (٢١٨) صفحة، دار الشروق، الطبعة الخامسة (١٩٩٤م)، في هذا الكتاب خواطر منثورة جمعت بين العلم والأدب والنقد والتاريخ والفتوى الغابرة والمعاصرة، لكنها جميعًا تتصل بقضايا المرأة والأسرة والمجتمع الصغير.

من عناوين الكتاب: حسِّنوا صورة المرأة المسلمة، الدور الغائب للمرأة، المساواة ثابتة في القرآن، المرأة في الأدب والعلم، في باب مفاهيم يجب أن تصحح: العديد من المفاهيم المتعلقة بموضوع المرأة وليس لها أصل من الإسلام.

٥٠ـ تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل

يقع الكتاب في (٢٢٤) صفحة، الطبعة الثانية، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي (١٩٩١م)، والكتاب هو حديث حول العلوم النقلية الإسلامية، وطرائق تدريسها، ووجوب النظر في إعادة بناء برامجها، وإصلاح مختلف جوانب العملية التعليمية المتعلقة بها.

يقع الكتاب في عشرة فصول، **عناوينها:** إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية، أبعاد الوحي الأعلى، أغلفة تغطي الحقيقة العظمى، توضيح الصورة ومنع الغبش، حقائق في التربية، لمحة عن الابتداع،

إعادة كتابة التاريخ، على هامش التفسير، على هامش السنة، مستقبل العربية وآدابها.

٥١. كيف نتعامل مع القرآن الكريم

يقع الكتاب في (٢٣٦) صفحة، الطبعة الثالثة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام (١٩٩٢م)، في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، وهذا الكتاب عبارة عن مدارسة حول مناهج فهم القرآن المجيد وقضاياه وتفسيره وتأويله وتطبيقه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلمين قديمًا وحديثًا، وكيف كان المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر ومعرفته وعلمه، ويعيد المؤلف القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر.

وتتسم هذه المدارسة بمداخل نقدية عديدة تبعًا لتعدد وتنوع الموضوعات التي تشملها، وذلك في محاولات بذلها المتدارسان لاستخلاص وعي قرآني بشروط معرفية تقارب ضوابط المنهج التحليلي الناقد.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه محاولة لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى، يؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر.

ومن عناوين الكتاب: من آثار هجر القرآن، العودة إلى القرآن، من تجربتي الذاتية، شمول الرؤية القرآنية، أبعاد المنهج المطلوب، الحاجة إلى فقه السنن القرآنية، الآثار المدونة لتعطيل قانون السببية، انفصال العلم

عن الحكم، الفقه الحضاري، إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق، وسيلة الشهود الحضاري والشهود التاريخي.

٥٢. صيحة تحذير من دعاة التنصير

يقع الكتاب في (١٥٥) صفحة، طبعة دار الصحوة الأولى، لعام (١٩٩١م) ألف الغزالي هذا الكتاب بعد أن اطلع على كتاب التنصير، الذي يمثل سجلًّا للممارسات والمحاورات والمقترحات والنتائج، التي انتهى إليها أحد المؤتمرات التبشيرية في أمريكا.

وهو المؤتمر الذي تخصص في قضية تنصير المسلمين في العالم، وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار، يؤكد المؤلف أن هذا المؤتمر مستنكر الأهداف والوسائل، ومن حق المسلمين في المشارق والمغارب أن يتنادَوا بأخذ الحذر والتأهب للدفاع.

والكتاب محاولة لمراجعة المواقف السابقة، وبيان أسباب الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين الإسلام والنصرانية، والتي عند التحقيق ينكشف أننا لسنا المسؤولين عنها، وهي دعوة للعقلاء والمخلصين للبحث عن الحقيقة في عصر العقل، وبالثوابت الدينية التي تتفق عليها كل الرسالات السماوية.

من عناوين الكتاب: مبادئ قبل النقاش، ليس عيسى إلهًا، المسلمون أتباع الأنبياء جميعًا، نموذج التنصير الرسمي، قضية المرأة عندنا وعندهم، المرأة في أوروبا وأمريكا.

٥٣ـ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

طبعة دار الشروق الثانية (١٩٩٦م) في (٥٦٠) صفحة، هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم، تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي لكل سورة من سور الكتاب العزيز.

والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي، الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب، أما الأول فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم صورة لها، تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الحقيقية التي تشهدها كلها، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها، والتفسير الموضوعي حلقة من التفسير، ولا يغني عن التفسير الموضعي؛ بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة.

وعناوين الكتاب: تشمل كل سور القرآن الكريم، قدم المؤلف ـ رحمه الله ـ تفسيرًا موضوعيًّا مختصرًا لكل سورة من سور القرآن الكريم.

٥٤ـ من كنوز السنة

طبعته مكتبة الأسرة (١٩٩٩م)، بعد سنوات ثلاث من وفاة الشيخ في (٢٠٢) صفحة، وألحقت به عددا من الأحاديث التي جمعها الشيخ ولم يتمكن من شرحها ـ الأمر الذي يدل على أنه آخر أعماله الفكرية في خدمة السنة النبوية المطهرة.

وفي هذا الكتاب ـ بعد المقدمة ـ شرح موجز للأحاديث التي اختارها الشيخ ـ وعددها يقارب السبعين حديثا ـ صنفها الشيخ تحت سبعة محاور.. عناوينها:

١ ـ أمم فاقدة الوعى.

٢ ـ الميزان الضابط للعبادة.

٣ ـ التباين بين البشر.

٤ ـ الحب في الله.

٥ ـ قبس من لحظات الإشراق والتسامي.

٦ ـ بين الرجل والمرأة.

٧ ـ متى يقبل الصوم؟

وفي هذا الكتاب ـ على إيجازه ـ الأحاديث التي يحتاجها الجمهور العريض من المسلمين.

٥٥ ـ مخطوطة كتب الشيخ فيها سيرة حياته

ولقد نشرت مجلة [إسلامية المعرفة] مقتطفات من هذه المذكرات في العدد الخاص الذي كرسته لفكر الشيخ الغزالي وحياته ـ العدد السابع ـ السنة الثانية ـ رمضان (١٤١٧هـ) يناير (١٩٩٧م). وفي افتتاحية هذا العدد وعد رئيس التحرير ـ الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني ـ بنشر كامل المذكرات ـ التي قال: إنها «الآن قيد الإعداد للنشر في كتاب».

وهي التي سبقت الإشارة إليها في رقم (٤١).

٥٦ ـ من وحي الرسالة

وهي إشراقات كتبها الشيخ عن العظمة المحمدية، وشروح لما في

حياته ﷺ من يقين وحكمة وسناء.. وهي أضواء يتطلبها واقع المسلمين المعاصر.. وفي كلماتها تحية القلوب المؤمنة لصاحب العظمة المتفردة بين خلق الله أجمعين.

وفي صفحاتها إشارات إلى رسالة الإسلام، التي هي أشرف مواريث الإنسانية على الإطلاق، والربوة العاصمة من الغرق في طوفان الصراعات التي يزدحم بها عالمنا المعيش.

وفي هذه الرسالة ـ على إيجازها ـ لمحات من أروع ما كتب في سيرة صاحب الرسالة العظمى، تزامل في صياغتها العقل والقلب والفؤاد على فقه سيرة سيد الأولين والآخرين.

ولقد صدرت الطبعة الأولى لهذه الرسالة (١٩٦٢م)، عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

دكتور

محمد عمارة

تقديم كتاب من وحي السيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله أجمعين، ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

فإن المشروع الحضاري للشيخ محمد الغزالي يرتكز على القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارهما المصدر الأساسي للتشريع، وقد قدم في إطار هذه النظرة دراسات مستفيضة حول القرآن الكريم، يتربع على قمتها (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وكيف نتعامل مع القرآن الكريم) وبخصوص السنة النبوية، قدم ـ أيضًا ـ كتابين ـ (فقه السيرة، والسنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) ينحو الأول منحى الأعمال التي تركز على مناط الاعتبار، ومحفزات التفكير، ويتجه الثاني إلى فض الاشتباك بين أهل الفقه وأهل الحديث.

ولكننا الآن أمام عمل مختلف، فلا هو سرد تاريخي، ولا هو معالجة لقضية واحدة.

لكنه يبحث في محراب النبوة، ينهل من منابعها الثرة ما يرقق به القلوب وينير به العقول، ومن ثم يقدم السيرة النبوية على أنها منهج لحياة نحياها، ورصيد من مبادئ نمتلكها، وقبس من نور نهتدي به، وهو في سبيل ذلك يجدد فقه السيرة، ولا يعتبرها قصصًا تروى في المناسبات للتبرك بها، وإنما يقرأ ما بين سطورها ليقدم للأجيال المتعاقبة زادًا من المعرفة للعقول ورصيدًا من التزكية للقلوب يستطيع به أن يرسم طريقًا لمواجهة التحديات.

وحديث الشيخ الغزالي عن السيرة النبوية ينم عن فقه للواقع وللوقائع معًا، وينبئ عن خبرة بعلل الأمة، يعالجها في ضوء السيرة. وحديثه عن رسول الله خصوصًا له منحىً خاص به، لا يشترك معه فيه غيره ولا يكرر هو نفسه. هذا المنحى يتسم بعاطفة جياشة وحب متدفق لا يشوبهما أدنى شطط. كما يتسم بعقلانية واعية توضح المشكل وتفصل المجمل وتجمع المتفرق، وهذه العقلانية لا تتعسف في استنطاق النصوص وتحميلها ما لا تتحمل. ولا تأخذ القارئ في حالة من التيه بكثرة الروايات وتعدد المرويات.

وهذا الكتاب عبارة عن قبسات من كتب متعددة له، وهي مع ذلك جاءت في تناسق مبدع، واتساق مبهر. وقد أعرضت عن عزو الفقرات إلى مظانها من كتبه لكي لا أفصم عراها، وأشتت القارئ بذلك.

هذا المنهج الذي رسمه الغزالي لنفسه ـ أو بتعبير أدق الذي وفقه الله له ـ يدور حول العنوان الكبير الذي وضعه للإسلام عندما قال: «إن الإسلام قلب تقي وعقل ذكي» ومن ثم فهو يقدم كل تعاليم الإسلام في العقيدة والشريعة والأخلاق تحت هذا العنوان.

إذا كان كذلك، فإن الكتاب الذي بين أيدينا يعبر بوضوح عنه، والشيخ فيه يبين ما تقدمه السيرة من تقوى للقلوب وتطهير للنفوس يجعلها جديرة بتوفيق الله، لأن معية الله تهدى إلى من يملك ذكاء العقل وحدة الذهن، فالشيخ الغزالي قال في مواضع من كتبه: «إن الإنسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق» ولذا فهو يركز هلى نقاء النفس وطهر القلب. وهو في ذات الوقت وبنفس القدر يدفع الغباء ويعلي من قيمة العقل في التعامل مع السيرة النبوية،حتى لا يضع المترصدون للإسلام سمومهم في بعض المواقف من السيرة النبوية لكي يزعزعوا إيمان الشباب الصاعد بما يوهمونهم أن في السيرة ما يخالف المنهج العلمي الذي هو سمة العصر. ومن ثم، فالغزالي يأخذ حذره جيدًا من هذا المنزلق لا سيما وهو القائل: «إن الغباء في ديننا جريمة».

وإن كان الإلماح إلى ذكاء العقل ونقاء القلب جاء تلميحًا في بعض الكتب إلا أنه في هذا الكتاب تحديدًا جاء تصريحًا في أكثر من موضع، يقول: «تحمل أعباء الحياة على اشتداد وطأتها واسوداد صورتها مع بقاء القلب موفور الثقة والعقل مؤتلق الذكاء أمر لا يستطيعه الكثيرون».

ويقول: «وما كرامة البشر إلا كرامة الفطر السليمة والقلب المستنير والعقل الرشيد».

ويقول: «يا من يريد الإسلام لله رب العالمين التمس من المعرفة شعاعًا يضيئ عقلك ويصلك بحقائق الكون وشعاعًا من الفضيلة ينير قلبك ويصلك بما وراء الكون».

إن القيمة الحقيقية لأى كتاب تنبع من شيئين: الأول، ما يتضمنه من

قضايا محورية وما يوفق فيه صاحبه من عرض قوى لموضوعاته تقنع العقل وترضى النفس وهذا ما وضحته آنفا.

والثانى، هو الحاجة الضرورية والملحة لمثل هذا الكتاب والفكر أو بمعنى أدق المحيط الزمنى الذى صدر فيه الكتاب. والناظر إلى الظرف الراهن الذى تعيشه الأمة والأحداث التى تكتنفها يدرك مدى الاحتياج الشديد لمثل هذا الكتاب فى الوقت الراهن. إنه يمثل نافذة أمل للذين دبت فى نفوسهم بذور اليأس ولاحت أمام أعينهم ملامح القنوط بسبب ما يشاع عن الإسلام مما ليس منه من أعدائه أو بسبب ما يمارس باسم الإسلام مما ليس منه ـ أيضًا ـ من بعض المنتسبين إليه.

إنه يمد يد العون للشباب الحيارى الذين عصفت بعقولهم فى الآونة الأخيرة رياح الإلحاد الخبيثة فانحدرت بهم إلى بحر لجى من الظلمات.

إنه ينصف الصحب الكرام الذين التفوا حول رسول الله زاهدين فى الدنيا مشمرين عن سواعد الجد؛ رباهم الرسول واحدا واحدا حتى استحقوا أن ينالوا قربه بما بذلوا من جهد وبما ضحوا فى سبيل الاسلام من نفس ومال؛ وهو بهذا يقطع الطريق على كل من تسول له نفسه أن ينال من أقدارهم أو أن ينتقص من مكانتهم.

إنه يرفض الانتساب المغشوش للإسلام من القابعين فى ظلام الجهل والتخلف، والمنغمسين فى وحل الباطل والرذيلة.

إنه يملأ بالتراب أفواه الذين يزعمون الانتساب لسيدنا محمد ﷺ وعقولهم مظلمة بالجهل وقلوبهم مغمورة بالهوى.

إنه دعوة للمؤمنين أن يزدادوا إيمانا، وللمفرطين أن يثوبوا على عجل؛

وللأمة أن تدرك نفاسة ما لديها من كنوز. وما حباها الله به من خيرات على يد هذا النبى العظيم.

إنه دعوة للبشرية كلها أن تعمل عقلها وأن تولى هذا النبى قدره. وما أعظم الشيخ عندما قال: «لئن كانت أمة العرب تفتخر أن هذا النبى منها فان البشرية جميعا تفتخر أن هذا النبى لها».»

د/ علي عبد العظيم علي

مُقدِّمَةٌ

هذه الرِّسالةُ ليسَت قِصَّةً تتضَمَّنُ حياةَ الرسولِ ﷺ مِن مَولِدِه إلى أن آثَرَ الرَّفيقَ الأَعلَى، وإنَّما هي أضواءٌ عَلَى جَوانبِ العَظَمَةِ في سِيرَتِه، وشُروحٌ لِـما في حياتِه الجَليلةِ مِن يقينٍ وحِكْمةٍ وسَناءٍ..

هذه الرِّسالةُ إذن ليسَت تاريخَ حوادِثَ، وإنَّما هي تفسيرُ أحوالٍ، وبيانُ أسبابٍ ونتائجَ...

وقد رأينا أنَّ الكِتابةَ في تفاصيلِ الوقائعِ كثيرةٌ، والقارِئَ العادِيَّ يجِدُ لها مراجِعَ شَتَّى، أمَّا الإلماعُ إلى نواحِي العَظَمَةِ وحَقائِقِ الكاتِبِينَ، أو بتعبيرٍ آخَرَ، فإنَّ واقِعَ المسلِمِينَ الآن يتطلَّبُه.

فلتكُنْ هذه الكَلِماتُ تحيَّةَ القُلوبِ المؤمنَةِ.

لميلادِ الرَّسولِ الكريمِ

المؤلِّف

مَعالِمُ النُّبوَّةِ

كما يَرصُدُ عُلماءُ الفَلَكِ مِن أَرضِهِمُ القَريبَةِ أَجرامَ السَّماءِ العالِيَةَ، وكَواكِبَها القاصِيَةَ، وكما يستطيعُونَ بآلاتِهِمُ الصَّغيرَةِ ووسائِلِهِمُ القَصيرَةِ، أن يُعطُوا فِكْرَةً عن أبعادِها وأحجامِها وأشِعَّتِها ومَداراتِها.

كذلك نَرصُدُ ـ نحنُ أصحابَ النُّفوسِ المحدودَةِ والمواهِبِ المعتادَةِ ـ معالِمَ النُّبوَّةِ المحميَّةَ في أُفُقِها السَّامِي، ثم نتحَدَّثُ عن أشِعَّتِها الهادِيَةِ، وأمجادِها الرَّفيعَةِ، وآثارِها الخالِدَةِ، كما يتحَدَّثُ السائرونَ في النَّهارِ عن ضَحوَةِ الشَّمسِ، أو السَّائرونَ باللَّيلِ عن ضِياءِ البَدرِ، أو حَديثَ الأَذهانِ الكَليلَةِ عن العَبقريَّاتِ الـمُلْهِمَةِ، والأَقدارِ الهزيلَةِ عن الأقدارِ الـمُعَلِّمَةِ.

ولَن نُمَثِّلَ للنَّاسِ مِن معالِمِ النُّبوَّةِ إلَّا أطرافًا يسيرةً، ومهما اجتهَدنا في تصويرِها فلَن نَعْدُوَ قَولَ البُوصيريِّ:

إنَّـــما مَـثَّـلُـوا صِـفـاتِـكَ لـلـنَّـا
سِ كَـــما مَـثَّـلَ الـنُّـجُـومَ المـــاءُ

لقَد مضَت قُرونٌ طِوالٌ علَى ظُهورِ محمَّدٍ ﷺ في التَّاريخِ..

ولكِنَّ الآثارَ الغائِرةَ والأحداثَ العَميقَةَ الَّتي خَلَّفَها مِن بَعدِه لا تَزالُ قائمةً ولن تزالَ كذلِكَ..

فالأُمَّةُ التي صَنَعَها بيَدَيهِ، والرِّسالَةُ التي أُوحِيَت إليه، هي أَشرَفُ مَوارِيثِ الإنسانيَّةِ طُرًّا..

وسيمُوجُ العالَمُ بَعضُه في بعضٍ، وتَصطَرِعُ مَذاهِبُ وآراءٌ، وتَتَفانَى شُعُوبٌ وأجيالٌ، ويَبقَى بعدَ ذلك دينُ محمَّدٍ العظيمُ، يَبْقَى الرَّبوَةَ العاصِمَةَ مِنَ الغَرَقِ في هذا الطُّوفانِ الفَوَّارِ.

وسيبحَثُ العالَمُ كلُّه عن الحقِّ والسَّلامِ والعدالَةِ..

ومَهما أجْهَدَ نَفْسَه فلَن يَجِدَ إلى ذلك سبيلًا، إلَّا إذا عَرَفَ الطَّريقَ إلى محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسلامُ، فمَشَى عَلَى سُنَنِه، واستَقامَ على هَديِه، واستظَلَّ بلِوائِه، وأَلْقَى إليه السَّلَمَ...!

أَجَلْ، لَقَد قَطَعَتِ الإنسانيَّةُ ثَلاثةَ عَشَرَ قَرنًا أو يَزيدُ بعدَ رِسالَةِ محمَّدٍ، وخَطَتِ الحَضارَةُ أشواطًا فَسيحَةً إلى الأَمام، واطَّرَدَت سُنَّةُ التَّطَوُّرِ في كُلِّ شيءٍ، وقد يُقالُ: ماذا يصنَعُ دِينٌ، أو ماذا تَصنَعُ الأَديانُ جُملَةً، وقد جاءَت في العُصُورِ الوُسطَى ونحن الآنَ في عُصورٍ أُخرَى؟

وهذا تساؤلٌ يُمليه الجَهلُ بطبيعَةِ الإسلامِ الحنيفِ..

ذلك أنَّ الإسلامَ دِينُ الحقيقَةِ، والحَقيقَةُ لا تتغيَّرُ وإن تغَيَّرتِ الأَزمِنَةُ والأمكنةُ...

وما هو ثابتٌ في نَفْسِه يستوِي في ضَرورَةِ العِلْمِ به، أن يكُونَ عِندَ بَدءِ الخَلقِ أو عِندَ قِيامِ السَّاعَةِ...

والإسلامُ جُملَةٌ مِنَ الحَقائِقِ التي تتعلَّقُ بالعقيدَةِ، وبالفِكرِ، وبصِلَاتِ النَّاسِ بعضِهم ببعضٍ أو صِلاتِهم جميعًا بالخالِقِ جَلَّ وعَلَا...

ولو أنَّ دِينًا نزَلَ إلى النَّاسِ في هذه الأعصارِ، أَكُنتَ تحسَبُه يَنقُضُ مبدأَ التَّوحيدِ في العقيدَةِ؟ أو مَبدَأَ الأُخُوَّةِ في المجتمَعِ؟ أو مبدأَ التَّعارُفِ بينَ الأُمَمِ؟

أو قانونَ العدالَةِ في الأحكامِ، والفَضيلَةِ في الأخلاقِ؟

أو الصَّلاحَ النَّفسيَّ الذي لا ضمانَ له بينَ عامَّةِ النَّاسِ وخاصَّتِهم إلَّا بضُروبِ العِباداتِ وصُورِ الطَّاعاتِ؟

أو تَحسَبُه لا يَعتَرِفُ بضَراوَةِ الشَّهوَةِ بينَ الأفرادِ، وضَراوَةِ القُوَّةِ بينَ الأُمَمِ؟

كَلَّا كَلَّا! فلو أنَّ محمَّدًا جاءَ الإنسانيَّةَ في أَمسِها القَريبِ أو يومِها الحاضِرِ، أو لو أنَّ عَشَراتِ النَّبيِّينَ انطلقُوا مِن بعدِه بينَ المدائنِ والقُرَى مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ، ما عَدَوا حُدُودَ القُرآنِ في هَديِهم، ولا تجاوَزُوا حُلُولَه السَّمحَةَ في المشاكِلِ التي تَعتَرِضُهم...

فإنَّ هذا الدِّينَ جعَلَ اللهُ فيه خُلاصَةً للأديانِ السَّابِقَةِ، وغَناءً عَنِ الشَّرائعِ اللَّاحِقَةِ..

وإنَّ محمَّدًا صاحِبَ الرِّسالةِ العُظمَى هو أَمَلُ العالَمِ في يومِه وغَدُه... وكِتابَه هو الدَّواءُ الفَذُّ لِما أصابَ العالَمَ مِن دُوارٍ، ولما اعتَرَى خُطُواتِه مِن عُثارٍ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى

ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥- ٤٨].

❀ ❀ ❀

ومِن مَعالِمِ النُّبُوَّةِ ظهورُ محمَّدٍ برِسالَتِه هذه، في تلك البُقْعَةِ بعَينِها مِن صحراءِ الجزيرةِ، فأنت لا تعجَبُ للزَّهرَةِ النَّابتَةِ في الرِّياضِ الزَّاهِرَةِ والحَدائقِ النَّضِرَةِ، ولكنَّك تعجَب لها أَشَدَّ العَجَبِ عندما تراها مُستويةً على ساقِها في صميمِ الصَّحراءِ القاحِلَةِ، وفي مَهَبِّ الرِّياحِ السَّافِيةِ...

فكيف والأَمرُ ليس زَهرةً واحدةً ولا زَهراتٍ؟ بل هو كما قال القرآنُ:

﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ...﴾ [الفتح: ٢٩].

وهَكَذا تَجَدَّدَ للفِكْرِ الإنسانيِّ شَبابُه بعدَ بِلًى وانحِلالٍ، وعادَت للحضارَةِ الإنسانيَّةِ قُوَّتُها بعدَ رُكودٍ واضمحلالٍ.

ومِن أين أَتَتْها هذه الأمدادُ الوافِدَةُ بالحياةِ؟

مِنَ الصَّحراءِ التي لم تَزدهِرْ فيها قَبْلُ معرِفَةٌ، والتي كان يُنتَظَرُ منها أن تستورِدَ المعارِفَ مِن جاراتِها العريقةِ في الحضارةِ، لا أن تقُومَ هي بالتصديرِ والإمدادِ!

وما انعكَسَتِ الآيةُ في قوانينِ الأرضِ إلَّا لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أرادَ أن يُحدِثَ آيةً مِن لَدُنْهُ...

فلمَّا اتَّصَلَ جَدبُ الصَّحْراءِ بوحيِ السَّماءِ تحوَّلَ إلى خَصبٍ ونَماءٍ...

فانطلَقَ محمدٌ وصَحبُه في مشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها هُداةً مُرشِدِينَ، وبُناةً مجدِّدينَ..

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد استمرَّ نزولُ القُرآنِ بضعًا وعشرين سنةً، كان أوَّلُه تمهيدًا للآخِرةِ، وكان آخِرُه تصديقًا لأوَّلِه..

وتعتبرُ تعاليمُ الإسلامِ وِحدَةً مُتماسِكَةً لا يأتيها الباطِلُ مِن بينِ يَدَيها ولا مِن خَلفِها..

والإسلامُ الذي بشَّرَ به الرَّسولُ هو نفسُه الذي دَعا إليه خُلَفاؤُه..

وإنَّما نَقولُ هذا الكَلامَ لنُقَرِّرَ به فَرقًا بينَ الرِّسالاتِ الأرضيَّةِ التي صَنعَها النَّاسُ لأنفسِهم، وبينَ الرِّسالةِ السَّماويَّةِ المنزَّلَةِ مِن عِندِ الله...

فالديمقراطيةُ التي نادَى بها الفَرَنسيون، مثلًا، لم تكن لها حقيقةٌ متميزَةٌ يومَ كان الثُّوَّارُ الفَرَنسيون يهتِفُون لها..

وقد وُضِعَت لها دساتيرُ كثيرةٌ، كانت كَثرَتُها مثارَ سُخرِيَةٍ لاذِعَةٍ..

وقد قتَلَ الثُّوَّارُ قادَتَهم، وانتَهَت ثَورَتُهم بإمبراطوريةٍ سفَّاكَةٍ طاغيةٍ..

ثم عادَت مرَّةً أُخرَى جُمهورِيَّةً تُشَرِّعُ مِن دَساتيرِ الدِّيمقراطيَّةِ ما تَراه صحيحًا اليومَ لتَعُودَ إلى نقضِه غدًا!

والشُّيوعيَّةُ التي نادَى بها «ماركسُ[1]» هي شيءٌ آخَرُ غيرَ الذي طَبَّقَه «لِينينُ[2]» وما طبَّقَه لِينِيُن شيءٌ آخَرُ غيرَ الذي نفَّذَه ستالِيُن..

ولسنا ندرِي ما يحمِلُ الغَدُ في طَيَّاتِه مِن أطوارٍ جديدةٍ لها..

وذلك أمرٌ لا يُستَغرَبُ، فيما يَصنَعُ النَّاسُ لأنفسِهم مِن نُظُمٍ.. إذ إنَّهم يُخطِئون ثم يكتشِفُون أغلاطَهم فيُداوُونَها بخَطأٍ آخَرَ..

أمَّا ما يَشْرَعُ اللهُ لخَلقِه فهو مُنتَهَى الحِكمَةِ والرَّحمةِ، وفيه العِصمَةُ مِنَ التَّجارِبِ المريرَةِ..

ومِن ثَمَّ كانتِ الرِّسالةُ الإسلاميَّةُ، في بدايةِ الوَحيِ وخِتامِه، عقدًا يَسلُكُه نظامٌ واحِدٌ، وينتَهِجُ خُطَّةً واحِدةً، وغايةً واحِدةً.. وهي كذلك أبدًا في كُلِّ عَصرٍ ومِصرٍ!

وما نَعنِي بهذا مُقارَنةً بينَ الإسلامِ وغيرِه مِنَ النُّظُمِ، ولا بينَ نبيِّ الإسلامِ وغيرِه مِن قادَةِ الفِكرِ، فالإسلامُ ونبيُّه الكريمُ فوقَ هذا..

وشَتَّانَ بينَ السُّفُوحِ والقِمَمِ!

ولكنَّها معالِـمُ النُّبوَّةِ وشاراتُ الصِّدقِ، تتألَّقُ في مَعدِنِها النَّقِيِّ، فتَملأُ نُفُوسَنا غِبطَةً ويَقينًا، كُلَّما مَرَّتِ السَّنواتُ وتَجدَّدَتِ الذِّكرياتُ.

---

(١) كارل ماركس (٥ مايو ١٨١٨ إلى ١٤ مارس ١٨٨٣) فيلسوف الماني، سياسي، ومنظّر اجتماعي. قام بتأليف العديد من المؤلفات الا ان نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية.

(٢) فلاديمير أليتش أوليانوف المعروف بـلينين (بالروسية ولد في ٢٢ ابريل عام ١٨٧٠ وتوفي في ٢١ يناير عام ١٩٢٤. كان ثوري روسي ماركسي وقائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعاً شعاره الأرض والخبز والسلام.

الميلادُ اليَّتيمُ

بينَ مِيلادِ خاتَمِ النَّبيِّينَ ﷺ، وميلادِ مُوسَى عليه السلام تشابُهٌ قريبٌ، يرجِعُ إلى أنَّ الحَقَّ تبارَكَ وتعالَى حينَ يَصطَنِعُ عبدًا لنَفسِه، يُنشِئُهُ تَنشِئةً لا أثَرَ فيها لتوجيهِ النَّاسِ، ولا محَلَّ فيها لرعايةِ أحدٍ مِنَ الأقربِينَ أو الأبعدِينَ، ولا حاجَةَ فيها لتَدَخُّلِ العِبادِ ما دامَ الأمرُ ـ مِن قَبلُ ومِن بَعدُ ـ يَخُصُّ السَّيِّدَ وَحدَه !

ولقد فقَدت أُمُّ مُوسَى وَلَدَيها وهي لـمَّا تَنْتَهِ مِن آثارِ وَضعِه..

فهل فقَد مُوسَى عَطفَ الوُجودِ حين بَدَّلَ مِن صَدرِ أُمِّه صَدرَ الأمواجِ الهائجَةِ المائجَةِ، بعدَ أن أَلقَى التابوتَ بوديعَتِه الغاليةِ في ثَبَجِ اليَمِّ[1] الطَّامِي ؟!

لأنَّ اللهَ ـ الذي تَخفِقُ اللُّجَجُ بتَسبيحِه ـ كان قد تكَفَّلَ بكُلِّ شيءٍ عندما قال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

(١) الثَّبَجُ: وَسَطُ الشيء تَجَمَّعَ وبَرَزَ. والجمع: أثباج ، وثُبوج. ومنه ثبَج البحر.

وكذلك كانَ حالُ محمَّدٍ ﷺ في بحرِ الحَياةِ، ولئن كانت معجِزَةُ مُوسَى في طُفولَتِه محسوسَةً فلقد كانت مُعجِزَةُ محمَّدٍ ﷺ ـ كشأنِ رِسالَتِه ـ لطيفةً معقولَةً..

ماتَ أبوه الشَّابُّ ولم تَسعَدْ عَيناه برُؤيَةِ أعظمِ طِفلٍ دفَعَت به أرحامُ الأُمَّهاتِ إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

وبرَزَ «اليتيمُ» العبقريُّ إلى الوجودِ وقد فقَد حَنانَ أبيه، ولكنَّه لم يفقِدْ حَنانَ رَبِّه!

وماتَت أُمُّه في الطَّريقِ بينَ مكَّةَ والمدينَةِ فأسرَعَت أُمُّ أَيمَنَ لِتَحتَضِنَ طِفلًا لم يتجاوَزِ الخامِسةَ مِن عُمرِه..

طِفلًا فقَد أَبَوَيهِ كِلَيهِما، ولكنَّ حظَّه مِن رحمةِ اللهِ يَربُو ويتضاعَفُ كُلَّما تقدَّمَ به العُمرُ..

وماتَ جَدُّه وآواه عَمُّه إليه وكان رَجُلًا فقيرًا نبيلًا، فكان على اليتيمِ الفريدِ أن يعملَ معَ عَمِّه ليَعيشَ، فتراه في العاشِرَةِ مِن سِنِيِّه يُسافِرُ ويُتاجِرُ ويَكدَحُ..

حتَّى إذا رَآه أحَدُ الرُّهبانِ[1]، وقد نضَجَ إشراقُ رُوحِه على قَسَماتِ وَجهِهِ، أدرَكَ أنَّ أُمورًا في مستقبَلِ الحياةِ الإنسانيَّةِ ستُقضَى عَلَى يَدَي هذا الشَّابِّ، فهو يتساءَلُ عنه وعن والِدِه ثُمَّ يُتَمتِمُ: ما ينبغِي أن يكونَ أبو هذا حَيًّا...

وهَبْ أَباهُ كانَ حَيًّا ماذا كان يَفعَلُ له؟

(١) سيرة ابن إسحاف (١/ ٧٣).

لقد كان يعقوبُ حَيًّا، وأَبَى اللهُ إِلَّا أن يَنتَزِعَ يُوسُفَ مِن بينِ أحضانِه، وبدَلًا مِن أن يَتَرَبَّى في بيتِ النُّبوَّةِ درَجَ بينَ مَفاتِنِ القُصُورِ وظُلُماتِ السُّجُونِ، وأَحاطَ به مَن لا يَعِينون عَلَى خيرٍ، بل يُغرُونَ بالشَّرِّ ويَدفَعُون إليه دفعًا، فماذا كان مُستقبلُ يُوسفَ الصِّدِّيقِ؟

كان لَهَبُ الشَّقاءِ الذي صادَفَه حَرارَةً أنضَجَت بُذورَ الشَّرَفِ في كِيانِه الخاصِّ، فإذا نَفْسُه تَتَفَتَّقُ عن إيمانٍ وشَرَفٍ، وعَفافٍ وصِدقٍ. هي العَناصِرُ التي زَوَّدَه بِها القَدَرُ وهو جَنِينٌ..

والرِّجالُ الذين تَصطَفِيهمُ العِنايَةُ العُليا يُصنَعُون على هذا الغِرارِ، فليس آباؤُهم غارِسِي شَمائلِ العَظمةِ في طبائعِهم بالتَّربِيَةِ والتَّكليفِ، بل إنَّ آباءَهم لا يَصنَعُونَ شيئًا وما ضَرَّ مُحَمَّدًا أن يُولَدَ يتيمًا..

وصَدَقَ الرَّاهِبُ الذي قال: ما يَنبَغِي أن يكونَ أبو هذا حَيًّا..

إن الذي قالَ لموسَى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] قال لأخِيه الأكبرِ محمدٍ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩]..

هذا العِلمُ مُعجِزَةٌ..

سِلْ نَفسَكَ مَن أَلهَمَ الأُمِّيَّ رِسالَةً تَفخَرُ العُقُولُ الذَّكِيَّةُ بالفِقهِ فيها، وتُؤَلِّفُ في شَرحِ دَقائِقِها وبَيانِ وُجُوهِ حِكمَتِها وغرائبِ أسرارِها، مكتباتٌ فيها ألوفٌ مِنَ الرَّسائلِ والمجلَّداتِ.

مكتباتٌ يَعدُو على إحداها زَمَنٌ جاهِلٌ يُلقِي بأسفارِها إلى النَّهرِ فإذا نِطافُ[1] الماءِ الصَّافي تَسوَدُّ مِن فَرطِ الـمِدادِ!

مكتباتٌ لا تَزالُ مَدائِنُ العِلمِ الكُبرَى تَقتَنيها وتحرِصُ عليها! تتضافَرُ كُلُّها على ماذا؟ على خِدمَةِ الرِّسالَةِ التي بُعِثَ بها النَّبيُّ الأُمِّيُّ الذي لم يَدخُلْ مَدرسَةً ولم يجلِسْ إلى أُستاذٍ في جامِعَةٍ! ولكنَّه هو الذي شادَ دُورَ العِلمِ، ووضعَ حَجَرَ الأساسِ في الجامعاتِ بِما خَلَّفَ مِن ثَورةٍ عقليَّةٍ تطلُعُ معَ الشَّمسِ وتَبقَى على الآبادِ:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩].

ما هي رَوافِدُ هذا العِلمِ، وأين يَجِدُ النَّاسُ منابِعَه في هذه الأرضِ؟!

أكانَت أفكارُ التوحيدِ تَنبُتُ بينَ أوثانِ الجزيرَةِ وأحجارِها؟

أم كانَت آياتُ العَدلِ تُقتَبسُ مِن غَطرسَةِ الأكاسِرَةِ المجوسِ؟

أم تَعَلَّمَ محمَّدٌ ﷺ الرَّحمَةَ التي بُعِثَ بها مِن قُلُوبِ اليهودِ القاسيَةِ؟

ووَضَعَ أُصُولَ الوِحدَةِ مِن اختلافِ الكَنائسِ المسيحيَّةِ وانقساماتِها؟

ثُمَّ هَبْ أنَّ محمَّدًا ﷺ استوحَى أُصولَ دِينِه العَظيمِ مِنَ الأرضِ لا مِنَ السَّماءِ، ماذا يَستَتبِعُه هذا الفَرضُ ممَّا يُصادِمُ العَقلَ والواقِعَ؟

النتيجَةُ الغَرِيبَةُ هي أنَّ قُرآنًا بَشَرِيًّا استطاعَ أن يَقُومَ بدَعوَةٍ لتوحيدِ الله في أُسلُوبٍ مِنَ القَولِ والتَّوجِيهِ لم تستَطِعْه كُتُبُ السَّماءِ نَفسُها..

(١) جمع نطفة.

وأنَّه خَدَمَ الدِّينَ بِما لَم يَفعَلْه رَبُّ الدِّينِ نَفسُه...

أَفهذا مَنطِقٌ؟ أَفهذا الدِّينُ وَضعُ محمَّدٍ؟

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤- ٤٦].

وهذه العِبادَةُ!

ويقِفُ أَمثالُنا مِنَ البَشَرِ حَيارَى إِزاءَ هذه العِبادَةِ التي تَصِلُ سَوادَ اللَّيلِ ببَياضِ النَّهارِ جِدًّا ودَأْبًا..

يُكَبِّرُ للصَّلاةِ، ويَستَفتِحُ وإذا بأبوابِ السَّماءِ تَتَفَتَّحُ لنَبِيٍّ يَقرَأُ في الرَّكعَةِ الواحِدَةِ عَشَراتِ الصَّفَحاتِ مِن كِتابِ الله.

فإذا خَرَّ ساجِدًا حَسِبَته زَوجُه قُبِضَ مِن طُولِ ما لَبِثَ، وهو يَقولُ في ذِلَّةٍ وتَواضُعٍ: سُبحانَ ذِي الجَبَروتِ والمَلَكُوتِ والعَظَمَةِ.

ويقولُ خادِمُه: كُنتُ أجلِسُ إلى بابِه فلا يَزالُ يُسَبِّحُ حتَّى أَمَلَّ وتَغلِبُنِي عَينايَ..

وكانَّ ﷺ يصومُ حتَّى يقولَ النَّاسُ: ما يَفطُرُ، فإذا طَوَى النَّاسُ بُطُونَهم عَلَى حَجَرٍ طَوَى بَطنَه عَلَى حَجَرَينِ!

وذَهَبَ ليَحُجَّ فخَرَجَ عَلَى رَحلٍ رَثٍّ وقَطِيفَةٍ خَلِقَةٍ لا تُساوِي أَربَعَةَ دَراهِمَ ثُمَّ قالَ:

اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لا رِياءَ فيها ولا سُمعَةَ..

حتَّى إذا حَضَرَه الموتُ كان يَستَفِيقَ مِن سَكَراتِه ليُوصِيَ بتَقسيمِ عِدَّةِ دُرَيهَماتٍ جاءَته عَلَى الفُقَراءِ والمساكينِ!

وهذا النَّمَطُ مِنَ العِبادَةِ المتَّصِلَةِ الحَلَقاتِ لَمْ يَخبُ لَه ضِياءٌ منذ أن تَنَزَّلَ الوَحيُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.. وظَلَّ ينهَمِرُ أكثرَ مِن عِشرينَ عامًا إلى أن أَمَرَ بتَودِيعِ الحياةِ الدُّنيا والتَّهَيُّؤِ للرَّفيقِ الأَعلَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ...﴾.

حتى لكأنَّما نَسَّقَ اللهُ له مَراحِلَ حَياتِه العُظمَى، وقَرَنَ انتظامَها، بدَورانِ الفَلكِ مِنَ المشرِقِ إلى المغرِبِ، فليس يَعرُوها تَوَقُّفٌ ولا اضطرابٌ!

كيف، وقد قِيلَ له:

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

الجاهُ المادِّيُّ والأَدَبيُّ

نحن لا نَستَدِلُّ بالزَّهادَةِ عَلَى النُّبوَّةِ، فكَمْ في الدُّنيا مِن زُهَّادٍ ليسوا بأنبياءَ ولا أولياءَ..

إنَّما مَوضِعُ العِبرةِ في حياةِ سيِّدِ البَشَرِ أنَّه لم يُحاوِلْ مَرَّةً واحِدَةً أن يُثبِتَ لنَفسِه شيئًا مِنَ الجاهِ المادِّيِّ أو الأَدَبيِّ...

ولَمْ يُؤثَرْ عنه قولٌ أو عَمَلٌ يُومِئُ إلى هذه الناحيةِ، والعُظماءُ النَّفسانيُّونَ في ذلك غيرُ العُظماءِ الرَّبَّانيِّينَ..

الأَوَّلُونَ يُريدُونَ أن يَفرِضُوا نُفوسَهم عَباقِرَةً ممتازِينَ، وليس يَضُرُّ الواحِدُ مِنهم أن يُصادَرَ في رِزقِه، ولكنَّه لا يَقَرُّ له قرارٌ إذا خُدِشَ امتيازُه أو استُهِينَ بعَبقَرِيَّتِه..

إنَّه لا يُفَرِّطُ أبدًا في حُقُوقِه، بل يَرُدُّ عنها مُجَرَّدَ أعدائِه بكُلِّ ما أُوتِي مِن قُوَّةٍ، ولا يُحزِنُه أبدًا ـ وهو يقمَعُ كَيدَهم ـ أن يَراهُم أمامَه صَرعَى..

أمَّا الأنبياءُ، أمَّا سيِّدُ الأنبياءُ، فهَل تَرَى سِمَةَ الاعتِدادِ بالنَّفسِ واحتقارِ الأعداءِ والسَّطوةِ الأدبيَّةِ في مِثلِ ما يَتلُوه محمَّدٍ ﷺ في كِتابِه:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وشاءَ اللهُ أن يُكافِئَ هذا النَّبِيَّ الذي بَرِئَ مِن طَلَبِ الجاهِ الأدبيِّ فأضفَى عليه حُلَلًا مِنَ المجدِ لا تَبْلَى، شَرَحَ له صَدرَه، ورَفَعَ له ذِكرَه، وأَعلَى له قَدرَه، و.....

ومعَ ذلك فهناك ضُروبٌ مِنَ الزُّهدِ المادِّيِّ، هي في رَوعَتِها آيَةٌ عَلَى

النُّبوَّةِ، وإلَّا فكيفَ تُفَسِّرُ إباءَ الرَّسُولِ أن يُوسِّعَ على زَوجاتِه مِن مَتاعِ الدُّنيا الحَلالِ وتَنَزُّلَ آياتِ التَّخييرِ:

﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]؟

إنَّ الزَّاهِدَ قد يَرتَضِي الشَّظَفَ لذاتِ نَفسِه، أمَّا أن يَفرِضَه على بَيتِه وقُرَناءِ حَياتِه، فذاك مِثالُ العِبرَةِ..

بَلِ الأَقسَى مِن ذلك والأَدعَى إلى العِظَةِ، موقِفُه مِن ابنتِه فاطمةَ وزَوجِها عليٍّ، فقَد ظَلَّت فاطِمَةُ تطحَنُ عَلَى الرَّحَى حتَّى تَوَرَّمَت يَداها، وظَلَّ عَلِيٌّ يَسقِي بالقِربَةِ حتَّى اشتكَى صَدرَه..

فلمَّا سَمِعا بقُدومِ سَبيٍ عَلَى المدينةِ أرسَل عَلِيٌّ زَوجَتَه تَطلُبُ خادِمًا مِن أبيها، ولكنَّها استَحيَت أن تسأَلَه وعادَت إلى زَوجِها الذي ذَهَبَ يُعلِنُ الشَّكوَى، فكانَ جَوابُ الرَّسولِ: «والله لا أُعطِيكُم وأَدَعُ أَهلَ الصُّفَّةِ تُطوَى بُطُونُهم مِنَ الجُوعِ لا أجِدُ ما أُنفِقُ عليهم، ألَا أُخبِرُكما بخيرٍ مِن ذلك؟ تُسبِّحانِ اللهَ وتَحمَدانِه دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ...[1]».

تَربيَةُ قادَةٍ

ولقَدِ استمَعَ إلى هِداياتِ الرَّسُولِ أقوامٌ صَحِبُوه، وحمَلُوا معَه عِبءَ دَعوَتِه وشارَكُوه تكاليفَها مِن جُهدٍ وتَضحِيةٍ.

إنَّ سِيرَةَ هؤلاءِ الأصحابِ مِن بعدِه مُعجِزَةٌ تُضافُ إلى مُعجِزاتٍ، وآيَةٌ تُضَمُّ إلى آياتٍ..

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٣١).

إنَّهم عَرَفُوه عَلَى ضَوءِ العَقيدَةِ الجامِعَةِ والهَدَفِ الكبيرِ، وأَحَبُّوه حُبًّا انطَبَع في شِغافِ القُلُوبِ، وأَحَسُّوا كأَنَّ اللهَ اصطفاهُم لصُحبَةِ نبيِّه، كي يَكُونوا مِن بعدِه سَدَنَةَ رِسالَتِه وحَمَلَتَها إلى الآفاقِ..

ولقَد صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه، فوجَدَ الإسلامُ في قلوبِهم وأَيدِيهم كَهْفَه، ووَجَدَ الكُفرُ في يَقَظَتِهم وسُيوفِهم حَتفَه..

ولَكَمْ سَعِدَ الرَّسُولُ ـ وهو في مَرَضِه الأخيرِ ـ عِندَما أَطَلَّ مِن نافِذَةِ بَيتِه فَرَأَى الأصحابَ الأبرارَ مُنتظِمِينَ في صُفُوفِ الصَّلاةِ...

لقَد أشرَقَ وَجهُهُ كأَنَّه وَرَقَةُ مُصحَفٍ بعدَ أن أيقَنَ أَنَّه تَرَكَ آثارًا لن تَزولَ ورَبِّى نُفُوسًا لا تَحُولُ..

أَجَلْ هذه الأسماءُ اللَّمَّاعَةُ في تاريخِ الإسلامِ ما كانَ يُقَدَّرُ لها أن تكونَ شيئًا مَذكُورًا لَولا الدَّعوَةُ التي قامَ بها سَيِّدُ الدُّعاةِ ودَعَّمَ بِها قُوَى الخَيرِ على ظَهرِ الأرضِ.

نَبِيُّ النُّورِ

للجَهلِ ظَلامٌ لا يَمحَقُه إلَّا ضياءُ العِلمِ، وللرَّذيلَةِ سَوادٌ لا يَمحُوه إلَّا سَناءُ الفَضيلَةِ، وللرِّيبَةِ ظِلالٌ لا تَنسَخُها إلَّا أَشِعَّةُ الحقيقَةِ، وللبَغيِ غِشاوَةٌ لا يَخرِقُها إلَّا وَهَجُ العَدلِ، ولنسيانِ اللهِ ثُمَّ نِسيانِ النَّفسِ لَيلٌ مُعتكِرٌ داكِنٌ طويلٌ، لا يَشُقُّه إلَّا صُبحُ الإيمانِ، ولا يُمَزِّقُ حُجُبَه إلَّا ضُحاهُ المُمتَدُّ العَريضُ..

وقد كان محمَّدٌ نُورًا يتألَّقُ سِراجُه في آفاقِ البَشَرِ مِثلَما تَتَألَّقُ الشَّمسُ في كَبِدِ السَّماءِ، وكانت أقباسُ هذا النُّورِ تُخامِرُ الأفئدَةَ، وتَنسابُ إلى العُقولِ، لتُخَلِّصَ المؤمنينَ مِن ظُلُماتِ الحَيرَةِ والطَّيشِ والتَّخبُّطِ.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومِن ثَمَّ تَميَّزَ المؤمنونَ الذين يَتَّبِعُون محمَّدًا بأنَّهم قومًا مُستَنيرُونَ يَعلَمُون حينَ يجهَلُ غيرُهم، ويَكمُلُون حينَ يَنقُصُ، ويَطمَئِنُّونَ حينَ يَرتابُ، ويَعدِلُونَ حينَ يَظلِمُ، ويَحيَونَ بحَقِّ اللهِ وحَقِّ أنفسِهم حينَ ينسَى غَيرُهم رَبَّه فيُنسِيه نَفسَه..

ذلك بأنَّهم خَرَجُوا ـ مِن يَومِ أَسلَمُوا ـ مِن ظُلُماتِ الجَهلِ والرَّذِيلَةِ والرِّيبَةِ والبَغيِ والضَّلالِ، ومَشَوْا في أنوارِ الحَياةِ الصَّحِيحَةِ..

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إنَّ الإسلامَ نورٌ يَستهدِي به الأفرادُ والشُّعوبُ، واسمَعْ إلى تَوكيدِ هذا المعنَى فيما نَسُوقُه إليك مِن آياتٍ:

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [النساء: ١٤٧].

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

وبقَدرِ ما يَستبطِنُ المؤمِنُ في نَفسِه مِن أضواءِ الحَقِّ وأنوارِ الخَيرِ، وبقَدرِ ما تَسبَحُ فيه مشاعِرُه وأفكارُه مِن وَضَحٍ وجَلاءٍ، وبقَدرِ ما يُسَدِّدُ خُطاه في هذه الدُّنيا مِن بَصَرٍ وضِياءٍ، بقَدرِ ذلك يتلَمَّسُ طَريقَه في الدَّارِ الآخِرَةِ إلى مصيرِه الخالِدِ.

فالمشرِفُونَ الأخيارُ يَسعَونَ إلى غايَتِهم واثِقِينَ:

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

أمَّا الخُبَثاءُ الأشرارُ الذين قَضَوا أعمارَهم في سجونٍ قاتمةٍ مِن أهوائِهم ودَنَاياهُم[1]، فستَهبِطُ عليهم غيومٌ راعِدَةٌ بالوَيلِ، وتَنطَبِقُ عليهم جَوانِبُ ليلٍ أيّ ليلٍ.. عندئذٍ يصرخُونَ بالمؤمنينَ طالبِينَ النَّجدَةَ:

﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا..﴾ [الحديد: ١٣].

إنَّ محمَّدًا نبيُّ النُّورِ. ولستُ أدرِي كيف يَنتَسِبُ إليه شخصٌ مُظلِمٌ أَو أُمَّةٌ مُظلِمَةٌ؟

هناك عُقولٌ تأوِي إليها الخُرافَةُ وتَسكُنُها الأباطيلُ!! ما صِلَتُها بالإسلامِ إذا كان كِتابُ محمَّدٍ مَبنيًّا عَلَى الحقائقِ، مَعنيًّا بِها وَحدَها؟

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ..﴾ [الزمر: ٤١].

هناك نُفُوسٌ لا تُرَى إلَّا في مَدَى شَهوَتِها، ولا تَقِفُ إلَّا عِندَ حُدودِ أَثَرَتِها.

فإذا كانَ اتِّباعُ الهَوَى ـ كما أَنبأَنا اللهُ ـ يُفسِدُ السَّماواتِ والأرضَ، فكيفَ لا تَفسُدُ بالأَهواءِ المطاعَةِ شُئونُ قَبيلٍ مِنَ النَّاسِ؟

إنَّ الذين يفقِدُونَ أنوارَ العِلمِ والفَضيلَةِ والحَقِّ والعَدلِ والإيمانِ ليسوا مِن محمَّدٍ في قليلٍ ولا كثيرٍ، ولا تُغنِي عنهم مَزاعِمُهم في هذا الصَّدَدِ شَيئًا..

---

(١) جمع (دنية).

سَمِعتُ أحَدَ النَّاسِ يَذكُرُ قَولَ الرَّسُولِ الكَرِيمِ: «تَناكَحُوا تَناسَلُوا تَكثُروا فإنِّي مُباهٍ بِكُمُ الأُمَمَ يَومَ القيامَةِ[1]» فقُلتُ: وَدِدتُ واللهِ لو كُنَّا أهلًا لهذه المباهاةِ!

إنَّ ظُلُماتِ الفَوضَى والمذَلَّةِ والجَهالَةِ التي تَلُفُّ جَماهيرَ المسلمِينَ اليومَ، تجعَلُ نَبِيَّهم ينظُرُ إليهم فيَأسَى.. أليسَ نَبِيَّ النُّورِ؟ فما للنُّورِ، وأهلِ القبورِ؟

واللهِ ما يُبالِي بِكُم محمَّدٌ، وما يَتوانَى عَنِ البَراءَةِ مِنكم، إلَّا أن تكُونوا كما عَنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فإذا عادَ المسلِمُون إلى الحياةِ الصَّحيحَةِ، وانطلَقُوا عَلَى الأرضِ تَحُفُّ بِهم أنوارُ الهُدَى والسَّدادِ، كانوا أهلًا لأن تباهي بهم الأمم..

إنَّ محمَّدًا ﷺ يُحِبُّ النُّورَ، ويَسألُ اللهَ في أحوالِه كُلِّها مزيدًا منه، وهو يكرَهُ الظَّلامَ ويَنأَى بقَلبِه ولُبِّه عنه، لا ظلامَ اللَّيلِ ولكِن ظَلامَ الجاهليَّةِ، ظلامَ النِّفاقِ، ظَلامَ الانقطاعِ عن اللهِ، ظَلامَ الرُّسوبِ معَ الأَثَرَةِ الجيَّاشَةِ الطَّافِحَةِ.

وهو لذلك يدعُو اللهَ أن يَغمُرَه مِن جِهاتِه جميعًا بالنُّورِ، حتَّى لا تَعمَى عليه سبيلٌ، وحتَّى لا يَطيشَ به نُزُوعٌ، أو يلتوِي به هَدَفٌ، إنَّه يدعُو اللهَ أن يُشِعَّ مِن حَولِه هالَةً لا تَنطَفِئُ أبدًا، بل إنَّه يدعُو أن يُغَلغِلَ هذا النُّورَ في كِيانِه حتَّى يمتزِجَ بجِلدِه وعَصَبِه.

عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ النَّبيَّ خَرَجَ إلى الصَّلاةِ وهو يقولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ في

(١) مصنف عبد الرازق (١٠١٤٢)، إسناده ضعيف.

قَلبِي نُورًا، وفي بَصَرِي نُورًا، وفي سَمعِي نُورًا، وعَن يَمِينِي نُورًا، وخَلفِي نُورًا، وفي عَصَبِي نُورًا، وفي لَحمِي نُورًا، وفي دَمِي نُورًا، وفي شَعرِي نُورًا، وفي بَشَرِي نُورًا [1]».

وفي رِوايَةٍ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ في قَلبِي نُورًا، وفي لِسانِي نُورًا، واجْعَلْ في سَمعِي نُورًا، وفي بَصَرِي نُورًا، واجعَلْ مِن خَلفِي نُورًا، ومِن أَمامِي نُورًا، واجعَلْ مِن فَوقِي نُورًا، ومِن تَحتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعطِنِي نُورًا [2]».

❀ ❀ ❀

يا مَن يُريدُ الإسلامَ لله رَبِّ العالمينَ، التَمِسْ شُعاعًا مِنَ المعرِفَةِ يُضِيءُ عَقلَكَ ويَصِلُكَ بحَقائِقِ الكَونِ وشُعاعًا مِنَ الفَضيلَةِ يُنيرُ قَلبَكَ، ويَصِلُكَ بِما وَراءَ الكَونِ فإذا فقَدتَ هذا الشُّعاعَ الهادِي، فازعُمْ كُلَّ شيءٍ إلَّا الإسلامَ.

إنَّ الحُجُبَ المرَكَّبَةَ، والغِشاواتِ المضاعَفَةَ، هي طَبَقاتٌ عازِلَةٌ تَمنَعُ التَّيَّارَ مِنَ المرورِ، وإذا انقطَعَ التَّيَّارُ احتُبِسَت قُواه الـمُحَرِّكَةُ والمبصِرَةُ فلن يكونَ ثَمَّ إلَّا الظلامُ والموتُ ولذلك وَصَفَ القُرآنُ شُئونَ الكافِرينَ بقَولِه:

﴿... أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) رواه الإمام مسلم ولفظه: «اللهمَّ! اجعلْ لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يديَّ نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعلْ في نفسي نورًا، وأَعظِمْ لي نورًا».

(٢) مسند الإمام أحمد (٥/ ٧٠).

مِن أَخلاقِ النُّبوَّةِ

مِنَ النَّاسِ مَن يَظهَرُ عَلَى صَفحَةِ الحياةِ، ثُمَّ يَختَفِي كالرَّغوَةِ التي تَصنَعُها الأمواجُ في عِراكِها الدَّائمِ معَ الرِّياحِ..

ومِنهم مَن يُزَوَّدُ بقُوًى أكبرَ، ومواهِبَ أبرَزَ، فيَمُرُّ بالدُّنيا ثُمَّ ينسَلِخُ عنها وقد ترَكَ آثارًا تَدُلُّ عليه وتَحمِلُ طابَعَه، تبقَى بعدَه حِينًا.. ثُمَّ تُدرِكُها طبيعةُ الفَناءِ بعدَ أيَّامٍ، أو أعوامٍ، أو أجيالٍ، فتَتَلاشَى وتَبِيدُ!

تَتَخَلَّفُ الآثارُ عَن أصحابِها
حِينًا ويُدرِكُها الفَناءُ فَتَتبَعُ

وهناك طائفةٌ أُخرَى مِنَ النَّاسِ طَرَقَت أَبوابَ الوُجودِ، وانسابَتَ معَ تَيَّارِ الحياةِ المتجَدِّدِ، ولاحَقَت مَوكِبَ الزَّمَنِ المنطَلِقِ فبَقِيت عَلَى حِينِ فَنَى غَيرُها...

وما زالَتْ بعدَ قُرونٍ مُتطاوِلَةٍ عَلَى مَوتِها المادِّيِّ تَعيشُ بَينَنا، تُوَجِّهُ الأَحياءَ إلى الخيرِ، وتَرسِمُ للحائِرينَ المنهَجَ، وكأنَّ فِكرَها الثَّاقِبَ، وقَلبَها الخافِقَ، وصَوتَها الجَهيرَ، لَمْ يَعْدُ عليه البِلَى، وتَطوِه جَنادِلُ القُبورِ..

أَحَقُّ النَّاسِ بالذِّكرِ مِن هؤلاءِ رُسُلُ اللهِ الذين يبلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ،

ويَخْشَونَه، ولا يَخْشَونَ أحدًا إلَّا اللهَ، وأَحَقُّ أولئك جميعًا بأن تُدرَسَ حَياتُه وتَتَرَسَّمَ خُطاه ونَتَعَلَّمَ عنه ونَتَّبِعَ هُداه ـ صاحِبُ لِواءِ الحَمدِ، وجِماعُ عُرا المجدِ، محمَّدُ بنُ عبدِ الله.

إن هذا الاسمَ الكَريمَ «محمدًا» لَمْ يُصبِحْ عَلَمًا عَلَى شَخصٍ وُلِدَ في سَنَةٍ مُعَيَّنَةٍ ودَرَجَ في بَلَدٍ مُعَيَّنٍ، بل أصبحَ حَقيقَةً مِن حَقائقِ الخَيرِ السَّارِيَةِ في الأَزمِنَةِ عَلَى تَواليها، والأَمكِنَةِ على تَغايُرِها، فما يَختَصُّ به عَصرٌ دُونَ عَصرٍ، وما تَنفَرِدُ به عاصِمَةٌ دُونَ عاصِمَةٍ..

لقد أَصبَحَ عُنوانًا عَلَى الـمُثُلِ التي تَصنَعُها الخَيالاتُ، ويستهدِفُها كُلُّ سائرٍ إلى الكَمالِ.

ولَئِن كانَ عُلَماءُ الأَخلاقِ يَرَونَ «الـمَثَلَ الأَعلَى» الذي يَجرِي الإنسانُ نحوَه وهو يَبتَغِي العُلُوَّ.. وَهمًا، فنحن نَدعُو صانِعِي الأَوهامِ لأنفُسِهِم أن يَرمُقُوا سِيرَةَ هذا الإنسانِ الجليلِ «محمَّدِ بنِ عبدِ الله» لِيَرَوْا كيفَ تَجَمَّعَتِ الـمُثُلُ العُليا للشَّجاعَةِ، والكَرَمِ، والبِرِّ، والإخلاصِ، والصَّبرِ، والكِفاحِ... كيفَ تَجَمَّعَت هذه الـمُثُلُ في مِثالٍ واحِدٍ، نَفَخَ اللهُ فيهِ رُوحَه، فجَعَلَه بَشَرًا سَوِيًّا ورَسُولًا نَبِيًّا..

ويومَ تتعَلَّقُ العُيونُ بهذا المثلِ الحَيِّ، وتُحاوِلُ التَّأَسِّيَ به، والنَّسجَ عَلَى مِنوالِه، فإنَّا مُوقِنونَ بأنَّ العالَمَ يكونُ قد اكتشَفَ في عالَمِ الأخلاقِ قُوَّةً أَفعلَ وأَزكَى أَثرًا مِن قُوَّةِ الكَهرُباءِ في عالَمِ الطَّبيعَةِ.

وعِندي أنَّ العُنصَرَ الأصيلَ في عَظَمَةِ «محمَّدٍ» هو الرَّحمةُ، الرَّحمةُ التي تجعَلُ الإنسانَ يَرِقُّ للنَّاسِ أجمَعينَ، بل يَرِقُّ لكُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطبَةٍ،

والتي تجعَلُه يَتَّصِلُ بالحياةِ وفي نَفسِه عَواطِفُ غامِرَةٌ مِنَ الشَّوقِ والرَّغبَةِ والسَّلامِ..

فهو لَيِّنُ الجانِبِ لِـمَن حَولَه سَليمُ الصَّدرِ لِـمَن خاصَمَه، يَتَمَنَّى عَودَتَه وأَوبَتَه أكثرَ ممَّا يرجُو تأنيبَه وعُقوبتَه. وقد مَضَت سُنَّةُ العَظَمَةِ خِلالَ الكِرامِ على هذا النَّسَقِ السَّمحِ وقديمًا قالَ عنترةُ:

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَـن تَعلُو بِـهِ الرُّتَبُ

ولا يَـنـالُ العُلا مَـن طَبعُه الغَضَبُ

وقد كانَ محمَّدٌ رَسُولُ الله جَيَّاشَ الفُؤادِ بهذه الرَّحمةِ السَّامِيَةِ النَّبيلةِ، فكان إذا عرَضَ الهدايَةَ على رَجُلٍ فَرَفَضَها ثُمَّ تَجَهَّمَ لصاحِبِها وأَدبَرَ مُعرِضًا عنها، كان النَّبيُّ الكريمُ ينظرُ إلى هذا الشَّقِيِّ الفارِّ عن الخيرِ، نظرةَ الوالِدِ الرَّقيقِ إلى ابنِه العاقِّ، الذي آثَرَ العِوَجَ عَلَى الاستِقامَةِ أي إنَّ أَساهُ لِغَباوَةِ ابنِه أَكثَرَ مِن غَضَبِه لصُدودِه عن الحَقِّ.

وقد طالَت أحزانُ الرَّسُولِ لجَهالاتِ النَّاسِ حتَّى خَشِيَ منها عَلَى نَفسِه، وعَلَى رِقَّةِ فُؤادِه وإرهافِ حِسِّه فقالَ اللهُ له:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

ومعَ أنَّ القُرآنَ تَهَدَّدَ هؤلاءِ الأجلافَ العاقِّينَ لأبَرِّ النَّاسِ بهم:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَـٰتُ ٱلۡكِتَـٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَـٰقُهُمۡ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ١-٤].

لكِنَّ هذا التَّهديدَ لـمَّا أوشَكَ أن يَتحوَّلَ إلى لَعنَةٍ ماحِقَةٍ بعدَ ما آذَى المشركون نَبيَّهم، واستباحُوا دَمَه، وقَتَلُوا أصحابَه في غَزوَةِ أُحُدٍ، وعُرِضَ عَلَى النَّبيِّ أن ينتَقِمَ مِنهم قال:

«اللَّهُمَّ اهدِ قَومِي فإنَّهُم لا يَعلَمُون[1]».

وقد أَشادَ القُرآنُ بهذا الخُلُقِ العَظيمِ في شَمائلِ صاحِبِ الرِّسالَةِ فأَبانَ للنَّاسِ كيف أنَّ عَنَتَهم يَعِزُّ عليه، وكيف أنَّه مُتَشَبِّثٌ بِهم، حَرِيصٌ عليهم، بالمؤمنِينَ رءوفٌ رَحِيمٌ.

وهذا الـمَعِينُ الذي لا يَنضَبُ مِنَ الرَّحمَةِ المطبوعَةِ والبِرِّ العَميقِ بالنَّاسِ، هو الذي جَعَلَ الرَّسُولَ مَوطِأَ الأَكنافِ لصُنوفٍ مِنَ الأَتباعِ تَتَبايَنُ أمزِجَتُهم وخَلائِقُهم، وتَتَفاوَتُ طِباعُهم ومَسالِكُهُم، فهو يَهَشُّ لحاضِرِهم، ويَتَفَقَّدُ غائِبَهم، ويَفرَحُ لسُرورِهم، ويَبكِي لأحزانِهم ويَعيشُ معَ كُلِّ امرئٍ مِنهم وكأنَّه له صَدِيقُ العُمرِ.

وهذه الدِّعامَةُ المكِينَةُ لابُدَّ مِنها في بِناءِ كُلِّ عَظَمَةٍ إنسانيَّةٍ صحيحَةٍ، ولذلك يقولُ اللهُ تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعُنصُرُ الرَّحمةِ الغالِبَةِ لا يعني أنَّ صاحِبَ الرِّسالَةِ لا يَغضَبُ ويُقاتِل.. كَلَّا...

(١) البيهقي المصدر: شعب الإيمان برقم (٢/ ٦٢٢) وروى البخاري بلفظ: اللهمَّ، اغفِرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمون، برقم (٣٤٧٧).

فإنَّ أحوالَ الدُّنيا وأَغلاطَ النَّاسِ، تُوجِبُ على الإنسانِ أن يَقِفَ أحيانًا مَواقِفَ لا بُدَّ مِنها لِحمايَةِ مثلِه وفَضائلِه.

ولا خَـيرَ في حِـلـمٍ إذا لَـم تَـكُـن لَه
بَـــوادِرُ تَحـمِـي صَـفـوَهُ أَنْ يُـكَـدَّرَا

والرَّحيمُ حينَ يَقسُو كالـمُحِبِّ حينَ يَغضَبُ، فغَيرَتُه عَلَى عاطِفَتِه، وتَوَجُّسُه ممَّن يُريدُونَ مُصادَرَتَه ومَصادَرَتَها ذاك هو الذي يَجعَلُه يَتَوَجَّسُ ويَهتاجُ.

وفارِقٌ كَبيرٌ بينَ هذه النُّفُوسِ الخَيِّرَةِ، وبينَ ذَوِي الطَّبائعِ الشَّرِسَةِ الحَقُودِ التي تَسعَى وَراءَ الشَّرِّ، وتَتُوقُ إلى حَوكِ المكايِدِ، وتَأجِيجِ العَداواتِ، وتَرَى لَذاذاتِها في الدَّمِ المَسفُوحِ، والعَبَراتِ الـمُراقَةِ، والوُجُوهِ السَّاهِمَةِ.

وكَم في الدُّنيا مِن مَساعِرِ حُروبٍ، ومَشاعِلِ فِتنَةٍ... ولكِنَّ رُسُلَ الله أجمعِينَ، وحَوارِيِّيهِم الأُمَناءَ، أَبعَدُ النَّاسِ عن هذه الميادِينِ الخَسيسَةِ.

إنَّهم إذا أبغضُوا لله ولدِينِهم فهم يَكرَهُونَ الجَريمَةَ في الـمُجرِمِ والكُفرَ في الكافِرِ، وما يُقاتلون هذا وذاك إلَّا باعتبارِهم مُمَثِّلِينَ للجريمةِ والكُفرِ، فليسَت كراهَةً شخصيَّةً وهذا هو الفارِقُ بينَ الحَربِ التي يُوقِدُها المسلمون لله، وبينَ الحَربِ التي يَشُنُّها غَيرُهم جَهالَةً وعَمًى، لا لشيءٍ، إلَّا لأنَّهم «خَرجُوا مِن دِيارِهم بَطَرًا ورِئاءَ النَّاسِ ويَصُدُّونَ عن سَبيلِ الله».

والشِّدَّةُ عَلَى الكُفرِ مَصدَرُها حينئذٍ الغَيرَةُ عَلَى الإيمانِ، والسَّعيُ لِصيانَتِه مِنَ العابِثِينَ والـمُلحِدِينَ ولذلِكَ وَصَفَ اللهُ النَّبيَّ وصَحابَتِه بالوَصفَينِ معًا فقال:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

فعَلَى الـمُدافِعِينَ عن الإسلامِ في هذا العَصرِ أن يشيدُوا أَخلاقَهم أَوَّلَ الأمرِ عَلَى الرَّحمَةِ الشَّامِلَةِ.

فإذا أَجَأَتهم سَيِّئاتُ النَّاسِ إلى النَّفيرِ فآخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ، وقد كان رَسُولُ اللهِ يقولُ: «لا تَتَمَنَّوا لِقاءَ العَدُوِّ، فإذا لَقِيتُم فاثبُتُوا[1]..».

(١) رواه الإمام البخاري رقم (٣٠٢٤) بلفظ: لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا.

عاطِفَةٌ

قالَ لِي أَحَدُ الصَّالِحِينَ: إنَّنا نُحَيِّي رَبَّنا ـ جَلَّ شَأْنُه ـ ونَحنُ جُلُوسٌ في صَلَواتِنا أليسَ كذلك؟

قلتُ: نَعَم، عَقِبَ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، نَهمِسُ وأَيدِينا عَلَى الرُّكَبِ، التَّحيَّاتُ لله..

قال: ثُمَّ نَتَوَجَّهُ إلى الرَّسُولِ بالسَّلام بصِيغَةِ الـمُخاطَبِ الحاضِرِ، نَقُولُ ـ وكأنَّ الكلامَ لشَخصٍ قريبٍ مِنَّا ـ: السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها النَّبِيُّ ورَحمَةُ الله وبَرَكاتُه..!

قُلتُ: أَجَل، كذلِكَ نَفعَلُ، عَلَى بُعدِ المكانِ والزَّمانِ بَينَنا وبينَ هذا الرَّسولِ الكَريمِ!

قالَ: إنَّ الشّارع أَفرَغَ في تِلكَ الصِّيغَةِ قَصدًا؛ لأنَّ النَّبِيَّ يَجِبُ أن يَكُونَ حَيًّا في ضَمِيرِ كُلِّ مُؤمِنٍ، يجِبُ أن ينتَصِبَ له مِثالٌ مَرمُوقٌ في وَعيِ المسلِمِ اليَقِظِ تتحَقَّقُ فيه مَلامِحُ الصُّورَةِ الذَّاهِبَةِ!

وهل تُؤخَذُ الأُسوَةُ الواجِبَةُ إلَّا مِن هذا الاستحضارِ الدَّائِمِ؟

لقَد مَرَّت أَعصارٌ عَلَى مَوتِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، ولكِنَّ القِيمَ

الرَّفِيعَةَ التي تَجَسَّدَت فيه ونَماذِجَ العُبُودِيَّةِ لله والجِهادِ في سَبِيلِه والحُنُوِّ عَلَى خَلقِه، وصُوَرَ الكَمالِ البَشَرِيِّ في العَفافِ والعَدلِ والإيثارِ والـمَرحَمَةِ تِلك كُلُّها مَعانٍ لَم تَمُتْ وإنَّما خُلِّدَت في كِيانِ هذا النَّبِيِّ الـمُحَمَّدِ...

والـمُسلِمُ عِندما يَقولُ في صَلَواتِه: السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها النَّبِيُّ ورَحمَةُ الله وبَرَكاتُه. إنَّما يَقتَرِبُ مِن إمامِه الأَعظَمِ الذي أَمَرَه اللهُ أن يَتَأَسَّى به، وأنَ يَسعَى في رِكابِه:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [الأحزاب: ٢١].

❀ ❀ ❀

واستَرسَلَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ في عاطِفَتِه الـمُهتاجَةِ وأَخَذَ يَشرَحُ لي ما يَعنِي قال: إنَّ الشَّمسَ في رائِعَةِ النَّهارِ لا تُعتَبرُ غائِبَةً عَن بَصَرٍ، وتَستَطِيعُ كُلُّ مِرآةٍ مَجلُوَّةِ الصَّفحَةِ أن تَعكِسَ صُورَةً لقُرصِها أو لهالَتِها، أو لأَشِعَّتِها، ومحمَّدٌ ﷺ في عالَمِ اليَقِينِ والخَلقِ، شَمسٌ لا يُنكَرُ لها بَرِيقٌ، ولا يَغِيمُ لها ضَوءٌ.

والـمُهِمُّ أن يكونَ لكَ فُؤادٌ مَصقولٌ يَستطِيعُ استقبالَ هذا النُّورِ في حَناياهُ، والاستهداءَ به في دُرُوبِ الحَياةِ.

إنَّ القُدوَةَ الطَّيِّبَةَ تَقُومُ عَلَى استحضارِ الـمَثَلِ الأَعلَى في الذِّهنِ ومُحاوَلَةِ السَّيرِ عَلَى غِرارِه في الخارِجِ، والائتِناسِ الدَّائمِ بهذا الـمَثَلِ الأَعلَى هو الذي يُلهِجُ الأَلسِنَةَ بعدَ تحيَّةِ الله تَبارَكَ وتَعالَى بالسَّلام عَلَى رَسُولِه سَلامِ حُضُورٍ لا سَلامِ غَيبَةٍ «السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها النَّبِيُّ ورَحمَةُ الله وبَرَكاتُه، السَّلامُ عَلَينا وعَلَى عِبادِ الله الصَّالِحِينَ».

ومُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ﷺ مَعقِدُ الحَقائِقِ التي يَصلُحُ بِها العالَمُ مِن أَزَلِه إلى أَبَدِه والتَّعاليمُ التي جَاءَ بها لا يَستَغنِي عنها الأَوَّلُون والآخِرُونَ إِلَّا إذا استغنَتِ الأَكوانُ عن نظامِ الجاذِبِيَّةِ وسائرِ السُّنَنِ العامَّةِ.

❀ ❀ ❀

واضطِرابُ الحَياةِ إنَّما يَرجِعُ إلى تَجاهُلِ الهِداياتِ التي جاءَ بها النَّبِيُّونَ وأَتَمَّها وأَجمَلَها هذا النَّبِيُّ الخاتَمُ.

وما يَثُوبُ النَّاسُ إلى رُشدِهم إِلَّا يومَ يَحتَفُونَ بهذه الرِّسالَةِ وصاحِبِها ويَعرِفُون حُكمَ الله عن طريقِه.

وكان حقًّا عَلَى العالَمِ كُلِّه أن يُصَدِّقَ بهذه البِعثَةِ العامَّةِ، ولكِنَّ العالَمَ تَنكَّرَ وتَطاوَلَ على رَجُلِها الكَبيرِ.

وعِندِي أنَّ الشَّفاعَةَ العُظمَى ـ التي جاءَتِ السُّنَنُ بثُبُوتِها لرَسُولِ الله ـ لا تَعدُو أن تكونَ لونًا مِن تَأدِيبِ البَشَرِ كافَّةً عَلَى مَوقِفِهِمُ السَّابِقِ مِن نَبِيِّ الإسلامِ، فإنَّ رَسُولَ أيِّ عَظِيم يستحِقُّ مِنَ التَّوقِيرِ والإعزازِ بقَدرِ ما لِـمُرسِلِه مِن مَكانَةٍ، والرَّجُلُ ـ أَرسَلَه رَبُّ العالـمِينَ ـ كان يجِبُ أن يَلقَى مِنَ التَّكرُمَةِ ما يَرفَعُ ذِكرَه ويُعلِي شَأنَه، غيرَ أنَّ أكثرَ النَّاسِ تَواصَوا بالصَّدِّ عنه وجَحدِ دَعوَتِه، ورَغِبُوا عَنِ الحَقِّ الذي معه وبَخَسُوا قِيمَتَه، ثُمَّ تَتابَعَتِ الأجيالُ، والخَلَفُ في أَغلَبِ بِقاعِ الأرضِ يَتوارَثُونَ عَن سَلَفِهِم هذا التَّكذِيبَ الشَّنِيعَ!

ولو نَظَرتَ في جُهدِ الأُلُوفِ الـمُؤَلَّفَةِ مِنَ الكَنائِسِ والـمَعابِدِ لوَجَدتَ أَجهِزَةً مُنَظَّمَةً دَوَّارَةً في غَيرِ مَلَلٍ لصَرفِ النَّاسِ عَنِ الإسلامِ ونِسبَةِ أَقبَحِ النُّعُوتِ إلى نَبِيِّه الـمُبَرَّأِ الشَّرِيفِ..

وكأنَّ اللهَ ـ تَبارَكَ اسمُه ـ شاءَ أنْ يُعَرِّفَ هذه الأُمَمَ مَدَى ما كانَت فيه مِن غَباوَةٍ، وأن يُذِيقَها شَيئًا مِن مَرارَةِ الجَرِيمَةِ التي ارتَكَبَتها، فهُو في ساحَةِ العَرضِ الشَّامِلِ لأصنافِ الخَلائِقِ، يَحشُرُ سُكَّانَ القارَّاتِ الخَمسِ عَلَى القُرُونِ، يَحشُرُهم في صَعِيدٍ واحِدٍ ثُمَّ يَكشِفُ الغِطاءَ عَن عُيُونِهِم وإذا بِهم يَتَبَيَّنُون فَداحَةَ جَهلِهِم بالله الكبيرِ الـمُتَعالِ ويَتَبيَّنُونَ شَناعَةَ خِصامِهِم لإمامِ رُسُلِه...! وهُنا يَمُوجُ بَعضُهُم في بعضٍ ويضطرِبُونَ في حَيرَةٍ مُفزِعَةٍ لا يُرجَى مِنها خَلاصٌ، وتَتحرَّكُ جُموعُهم إلى كُلِّ نَبِيٍّ سَمِعُوا باسمِه في العالَمِ الذي انتهَى، يُناشدُونَه أن يَسأَلَ اللهُ لَهُمُ الرَّحمَةَ، ولكنَّ النَّبِيِّينَ كُلَّهم يَرفُضُونَ التَّصَدِّي لهذا المطلَبِ، ويُعودُ أهلُ القارَّاتِ الخَمسِ مُتراكِضِينَ فإلَى الرَّجُلِ الذي طالَـما قِيلَ لهم: إنَّه كذَّابٌ! إنَّهم يحُسُّونَ الآنَ عَن يقينٍ أنَّهم أَخطَئُوا في حِقِّه، وأنَّهم يَومَ صَدُّوا عنه كانوا يَخسَرُونَ أنفُسَهُم وأهلِيهم!

الشَّفاعَةُ العُظمَى ـ في نَظَرِي ـ مَوقِفٌ يُحاكَمُ فيه التَّاريخُ البَشَرِيُّ كُلُّه، ليَعتَرِفَ أنَّ انصرافَه عَنِ الإسلامِ كان مَشاقَّةً للهِ، وعداءً لأحَبِّ أوليائِه، وأَصدَق دُعاتِه..

وما أَعجَبَ أن تَجِدَ الإنسانيَّةُ نَفسَها في حَرَجٍ يُوشِكُ أن يَقضِيَ عليها ثُمَّ تَعلَمُ فجأَةً أنَّ التَّنفيسَ عن كُرُباتِها رُبَّما تَمَّ باللُّجُوءِ إلى الرَّجُلِ الذي عاشَت دُهُورًا، وهي تَروِي عنه الأكاذِيبَ وتَنسُبُ إليه الأساطِيرَ..

والتجاءُ أهلِ الأرضِ إلى محمَّدٍ في تلك السَّاعَةِ العصيبَةِ، ولجوءُه إلى الله يطلُبُ مَغفِرَتَه للعَبيدِ الأغرارِ، ذلك ـ في ظَنِّي ـ هو الـمَقامُ الـمَحمُودُ الـمَقامُ الذي نَسأَلُه لـمُحَمَّدٍ ﷺ عَقِبَ كُلِّ أذانٍ يتردَّدُ صَداه في مَهابِّ الرِّيحِ، فيَستَجِيبُ له قَومٌ، وينصَرِفُ عنه آخَرونَ:

«اللَّهُمَّ رَبَّ هذه الدَّعوَةِ التَّامَّةِ والصَّلاةِ القائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ والفَضِيلَةَ وابعَثْهُ مقامًا محمودًا الذي وَعَدتَه[1]».

❀ ❀ ❀

قُلتُ: إنَّ محمَّدًا في عالَمِ العَقائِدِ والحَقائِقِ شَمسٌ وَضَّاحَةٌ نَفَّاحَةٌ لكِنَّ العُميانَ كثيرٌ وقد مَكَثَ هذا الرَّسُولُ النَّبيلُ يَصدَعُ بأمرِ الله، ويُنقِذُ النَّاسَ مِن أهوائِهِم ومظالِـمِهم، ثُمَّ ذَهَبَ إلى الرَّفيقِ الأعلَى تارِكًا فِينا تُراثَه الجَليلَ مِن كِتابٍ وسُنَّةٍ..

فليتعلَّمِ الدُّعاةُ مِن حَياةِ سيِّدِ الدُّعاةِ أنَّ أجرَ الحَقِّ المبذُولَ لا يُعَجَّلُ في الدُّنيا وأنَّ للمَقامِ المحمودِ موعِدًا في غَيرِ هذه الدَّارِ يَتعَلَّقُ به وَحدَه الدُّعاةُ الأبرارُ.

(١) رواه الإمام البخاري برقم (٤٧١٣).

مِن أَسرارِ العَظَمَةِ

أنوارُ النُّبوَّةِ

عَلَى حَداثَةِ عَهدِي بدِرَاسَةِ السُّنَّةِ الـمُطهرة، كانت تستوقِفُنِي عباراتٌ طريفةٌ لنُقَّادِ الحديثِ، أولئك الرِّجالِ الأذكياءِ الذين صانوا تُراثَ النُّبوَّةِ عَلَى أن تَتَزايدَ فيه الأهواءُ، فقد كانوا إذا ما رأوا حديثًا دَخيلًا، يكشِفُون زَيفَه ثُمَّ يقولون عنه: إنَّه لا تَلُوحُ عليه أنوارُ النُّبوَّةِ !

حتى مَرَّت عَلَيَّ سنواتٌ طِوالٌ وأنا مُكِبٌّ عَلَى قِراءَةِ السُّنَّةِ الكَريمَةِ، أنتَقِلُ بينَ صحائِفَ شَتَّى مِن آدابِها الـمُشرِقَةِ، وتَوجِيهاتِها الحَيَّةِ، وعِظاتِها النَّفَّاذَةِ.

وأُجِيلُ الطَّرْفَ في آفاقٍ لا نِهايَةَ لرَحابَتِها، ولا شائبَةَ في رِفعَتِها، ولا حَدَّ لسَنائِها وسُمُوِّها...

فلمَّا عُدتُ إلى نَفسِي بعدَ هذه الرِّحلَةِ الطَّويلَةِ، كان عَقلِي وقَلبِي يتسابَقانِ كِلَاهما إلى الإقرارِ بأنَّ عَلَى معالِمِ السُّنَّةِ الصَّحيحَةِ أنوارًا لَمْ تَزَلْ تَتَأَلَّقُ عَلَى مَرِّ القُرُونِ، ولم تَزَلْ تَحمِلُ مِن نَفسِ صاحِبِها طابَعَ الهُدَى وعُمقَ الأثَرِ، ولم يَزَلْ يَرِفُّ عَلَيها مِن صادِقِ الوَحيِ نَدًى يَفِيضُ

بالحياءِ ويَهِزُّ الأفئدَةَ، ولم تَزَلْ كُنُوزَ خَيرٍ وَفِيرٍ وبِرٍّ مَذخُورٍ لـمَن شاءَ ذلك كُلَّه.

ليس هذا ما نُنَوِّهُ به، فكَم في آثارِ الزُّعَماءِ مِن تَعالِيمَ نَقِيَّةِ الجَوهَرِ رائِعَةِ الرَّونَقِ، ولكنَّها معَ ذلك تعالَيمُ فقط...

أمَّا آثارُ السُّنَّةِ فهي تَعاليمُ وتَربيَةٌ معًا..

فيها ما يُقنِعُ العَقلَ ويُشبِعُ العاطِفَةَ...

تَحُسُّ عِندما تُطالِعُ صَحائِفَها أنَّك في حَضرَةِ جَليسٍ صالِحٍ يُؤثِّرُ فيك وتَتَأَثَّرُ به..

ويُداخِلُكَ تَهيُّبٌ وجَلَالٌ، إذ تَحُسُّ إحساسَ الوَلَدِ نحوَ الوالِدِ، والتِّلمِيذِ نحوَ الأستاذِ، والجُندِيِّ نحوَ القائدِ، والعامِّيِّ نحوَ الفَيلَسُوفِ..

وذلك إحساسٌ قاهِرٌ تتفتَّحُ له أقطارُ النَّفْسِ طَوعًا أو كَرهًا..

قد أقِفُ أمامَ السُّنَّةِ، وفي القَلبِ جُمُودٌ وعليه غِشاءٌ، فَما هِيَ إلَّا سُوَيعاتٌ حتَّى يتَّصِلَ بي تيَّارُ الشَّخصيَّةِ التي أُودِعَت بعضُ عَظَمَتِها في أحادِيثِها، فإذا القَلبُ يَزكُو والنَّفْسُ تَطِيبُ، وإذا أنوارُ النُّبوَّةِ تُسَلِّطُ أَشِعَّتَها مِن خِلالِ الغَيبِ فتَمحُو ظُلُماتٍ بَعضُها فوقَ بعضٍ.

أجَل إنَّ ذلك فِعلُ النُّفُوسِ الكَبيرَةِ... هَيهات أن يَنالَ مِن مُضائِه بُعدُ الزَّمَنِ..

ولقد واجَهَ آثارَه مِن قَريبٍ أقوامٌ آمَنوا باللهِ ورَسُولِه فالتَفُّوا بصاحِبِ الدَّعوَةِ الأُولَى التِفافَ الكَواكِبِ حَولَ أَشَدِّها وَأَعظَمِها سَنًى..

فهَل نتَنَظِمُ في دَورَةِ هذا الفَلَكِ نحن الآخَرِينَ؟

مَن يَدرِي؟ لعَلَّنا لا نَخلُدُ إلى الأرضِ في أهوائِنا..

عَلَى أنَّ لنا طُمُوحًا إن لَمْ تُواتِهِ الأسبابُ الـمَحضَةُ، فقَد يُواتيه فَضلُ اللهِ، وفي جانِبِ اللهِ لا تَتَوَقَّفُ عَواطِفُ الرَّجاءِ.

سِرُّ العَظَمَةِ

لله عَزَّ وجَلَّ رُسُلٌ كَثيرونَ قامُوا بواجِبِ الدَّعوَةِ إليه، وتَوارَثُوا كابِرًا عن كَابِرٍ هِدايَةَ الخَلقِ ونُصرَةَ الحَقِّ، فأنقَذُوا النَّاسَ مِن أنفُسِهم وعَرَّفُوهم إلى رَبِّهِم...

ولكِنَّ مُحَمَّدًا كان بشَخصِيَّتِه، وطَبيعَةِ رِسالَتِه، إمامَ الأَنبياءِ، وكانَ بحِقٍّ سَيِّدَ الدُّعاةِ إلى اللهِ.

فما سِرُّ هذه العَظَمَةِ وبِمَ كان هذا الفَضلُ الـمُبِينُ؟

السِّرُّ في هذا أنَّ الرَّسُولَ كُلِّفَ أنْ يَغرِسَ في قُلُوبِ مَن حولَه إيمانًا لا تُستَخدَمُ في غَرسِه إلَّا الوسائلُ الـمَقدُورَةُ لطاقَةِ البَشَرِ..

وقد استَطاعَ ذلك مِن غيرِ أنْ تَتَبَدَّلَ الأرضُ غيرَ الأَرضِ..

عَلَى عَكسِ ما حَدَثَ عَلَى عَهدِ مُوسَى مثلًا، إذ رُفِعَ الطُّورُ فَوقَ رُءوسِ النَّاسِ ليُؤمِنُوا باللهِ ويُعطُوا عَلَى ذلك الـمَوثِقَ!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وكما كان نبيًّا بينَ أتباعِه بَشَرًا رَسُولًا، فقد كان كذلك مع أعدائِه لَمْ تُسَخِّرْ ضِدَّهم قُوَى السَّماءِ عَلَى كَثرَةِ ما لَحِقَه مِنهم مِن إيذاءٍ..

عَلَى عَكسِ ما حَدَثَ لموسَى فقَد نَكَّلَ اللهُ بأعدائِه تَنكِيلًا قاهِرًا إذ مَسَخَهُم قِرَدَةً وخَنازِيرَ:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦].

وليس يُفهَمُ مِن ذلك أنَّ حَياةَ الرَّسُولِ كانت خَلوًا مِنَ الخَوارِقِ، لا؛ فإنَّ النُّبوَّاتِ قائمَةٌ عَلَى أن تَقتَرِنَ بالخَوارِقِ في الكثيرِ مِن مَظاهِرِها..

إنَّما الـمُهِمُّ تأسِيسُ اليَقينِ في قُلُوبِ الـمُوقِنِينَ، واستئصالُ العُدوانِ مِن نُفوسِ المعتَدِينَ، كانَ العامِلُ الفَعَّالُ فيه بَشَرًا اكتمَلَت في خُلُقِه عَناصِرُ الكَمالِ الإنسانيِّ وانتهَت إلى شَخصِيَّتِه أمجادُ الفِطرَةِ البَشَرِيَّةِ الناصِعَةِ، فكانَ أتباعُه أَعمَقَ النَّاسِ حُبًّا له؛ لأنَّه أهلٌ لكُلِّ حُبٍّ، وكان أعداؤُه مِن أَشَدِّ النَّاسِ تَهَيُّبًا له، لأنَّهم يُدرِكُون أنَّ أمامَهم بُطُولَةً يَعِزُّ تَناوُلُها ويَصعُبُ الكَيدُ لها.

وكان هو في محبَّتِه للمؤمنينَ بَرًّا وَدُودًا تَنبَثِقُ مِن فُؤادِهِ النَّبِيلِ عَواطِفُ جَيَّاشَةٌ لا يَنضَبُ مَعينُها، ولا يَتَعَكَّرُ صَفوُها..

اتَّسَعَت للسَّابِقِينَ واللَّاحِقِينَ مِن أُمَّتِه، مَن رَآهُم ومَن لَمْ يَرَهُم، سَمِعَه أصحابُه يقولُ:

«وَدِدتُ أنَّا قَد رَأينا إخوانَنا. قالوا: أو لَسنا إخوانَكَ يا رَسُولَ الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لَمْ يَأتُوا بَعدُ[1]».

(١) رواه الإمام مسلم برقم (٢٤٩).

فأَيُّ حُبٍّ هذا الذي يَمتَدُّ معَ العُصُورِ الـمُستَقبَلَةِ ليَرتَبِطَ بقُلُوبِ نَبِيِّها في ضَميرِ الغَيبِ.

أمَّا أعداؤُه فحَسبُكَ مِن نَقاءِ صَدرِهِ أنَّ ابنَ أُبَيٍّ ـ الذي طَعَنَ الرَّسُولَ في شَرَفِه وافترَى الإفكَ عَلَى أهله ـ كُفِّنَ يومَ ماتَ في قَميصِ الرَّسُولِ.. وأنَّ النَّبِيَّ السَّمحَ لَمْ يَرفُضْ الاستغفارَ له حتَّى أُمِرَ بالكَفِّ عنه..

الرِّسالَةُ الإسلاميَّةُ

ذاك أمرٌ يَتَّصِلُ بشَخصِيَّةِ الدَّاعِيَةِ الـمُوَفَّقِ الأَرِيبِ الذي تَخَيَّرَته العِنايَةُ لحَملِ الأَمانَةِ العُظمَى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهُناكَ أمرٌ آخَرُ يَتَّصِلُ بطَبِيعَةِ الرِّسالَةِ الإسلاميَّةِ نَفسِها، فقَد شاءَ اللهُ أن يَكُونَ كِتابُها مِسكَ الخِتام، وأن تُغلَقَ مِن بَعدِه أَبوابُ السَّماءِ، فلَن يَنزِلَ مَلَكٌ بوَحيٍ، ولَن يَنزِلَ مِنَ الـمَلَأِ الأَعلَى نَبَأٌ..

وعَلَى النَّاسِ مِن كُلِّ جِنسٍ ولَونٍ أن يَستَمِعُوا في القُرآنِ إلى الكَلِمَةِ الأَخِيرَةِ مِن هَدي الرَّحمنِ:

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤]..

هذه الرِّسالَةُ إذن باقِيَةٌ معَ الزَّمَنِ ما بَقِيَ الزَّمَنُ، فصاحِبُها نَبِيُّ الخُلُودِ.. وإذا عَلِمتَ أنَّها استَوعَبَت كافَّةَ ما في الرِّسالاتِ الأُولَى مِن أُصُولٍ

ثابتَةٍ بَعدَ أن نَفَت عَنها خُرافاتِ الجَهَلَةِ مِنَ الأَتباعِ، وأَكاذِيبَ الدَّجَّالِينَ مِن رِجالِ الدِّينِ، عَلِمتَ أنَّ الإِسلامَ في جَوهَرِه النَّقِيِّ دِينُ الأَزَلِ والأَبَدِ، وأنَّ نَبِيَّ الإِسلامِ هو إمامُ الأَنبياءِ، وحامِلُ لِواءِ الحَقِّ مِن بِدايَةِ أَمرِه إلى نِهايَةِ مُستَقَرِّه..

ولِئن كانَ نَبِيُّ القُرآنِ عَرَبِيًّا بحُكمِ الـمَولِدِ واللِّسانِ، فإنَّه ليس وَقفًا عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ، مِن حيثُ التَّعالِيمُ والتَّشارِيعُ، ومِيراثَه مِلكُ النَّاسِ جميعًا عَلَى سَواءٍ..

وحَقُّ القِيامِ عَلَى دَعوَتِه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَن تَبلُغُه آياتُها: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فإذا افتَخَرتَ أُمَّةٌ بأنَّ النَّبيَّ مِنها، فَلتَفخَرِ الأُمَمُ جَميعًا بأنَّ النَّبِيَّ لها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومِنَ الخَطَأِ أن نَظُنَّ في عُمومِ الرِّسالَةِ وخُلُودِها تَحَكُّمًا في عَقلِيَّاتِ الأَجيالِ، وتَجاهُلًا لأَحوالِ الأُمَمِ وظُرُوفِها المتجَدِّدَةِ، ووَفقًا لحَرَكاتِ التَّطَوُّرِ الإنسانيِّ نحوَ الكَمالِ.

فإنَّ تَعمِيمَ نُبُوَّةِ محمَّدٍ وتَخلِيدَها لَمْ يُقصَدْ به إلَّا المحافَظَةُ عَلَى ذلك كُلِّه لخَيرِ الإنسانِ وَحدَه..

فإنَّ الإسلامَ أوضَحَ الحَقائِقَ الأساسيَّةَ في عَلاقَةِ الإنسانِ بالله وبالنَّاسِ وبالكَونِ، ورَبَطَها بهَدي الفِطرَةِ وضِياءِ العَقلِ..

فإن كانَت ثَمَّةَ قُيودٌ مَفرُوضَةٌ أو صُورَةٌ مَرسُومَةٌ حَدَّدَها الإسلامُ، فلِكَيلَا تَجمَحَ الفِطرَةُ ويَستَحمِقَ العَقلُ ويخرُجَ الإنسانُ عَلَى نَفْسِه.

إنَّ الإسلامَ دِينُ الإنسانيَّةِ الخالِصَةِ، ونَبِيَّ الإسلامِ أَحَقُّ مَن تَلجَأُ إليه هذه الإنسانيَّةُ لتأوِيَ في كَنَفِه إلى الإيمانِ والأَمانِ:

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٢-٧٤].

عَبدًا رَسُولًا

تَحَمُّلُ أعباءَ الحياةِ عَلَى اشتدادِ وَطأَتِها واسوِدادِ صُورَتِها معَ بَقاءِ القَلبِ مَوفُورَ الثِّقَةِ، والعَقلِ مُؤتَلِقَ الذَّكاءِ، أَمرٌ لا يَستَطِيعُه إلَّا القَليلُون..

ذلك أنَّ كَآبَةَ المَنظَرِ في الأَهلِ والمالِ تُلقِي عَلَى النَّفْسِ ظِلالًا مُحزِنَةً، وتَترُكُ في الفِكرِ شُرودًا يَقصُرُ به عَنِ المُساهَمَةِ في الحياةِ العامَّةِ بقِسطٍ مَعقولٍ..

فكيف إذا كان الرَّجُلُ مُكَلَّفًا أن يُنشِئَ الحياةَ، ويُغَيِّرَ الطَّبائِعَ، ويُؤدِّي رِسالَةً تُغَيِّرُ مَجرَى التَّاريخِ؟

إنَّه يُريدُ أن يُؤمِّنَ حَياتَه الخاصَّةَ حتَّى يُطِيقَ تَحَمُّلَ أَعبائِها معَ أَعباءِ النَّاسِ، وقَد رَأينا مِنَ الأنبياءِ مَن طَلَبَ المُلكَ وعُنِي به فكانَ سُليمانُ مَلِكًا رَسُولًا:

نَبِيٌّ فَهْوَ عَدْلٌ حَيْثُ يَقْضِي
ومَلِكٌ فَهْوَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ

إلَّا أنَّ نَبيَّنا رُزِقَ مِن سِعَةِ الطَّاقَةِ عَلَى حَملِ الأعباءِ الخاصَّةِ والعامَّةِ

الشَّيءَ الكثيرَ، فلَقِيَ أَعنَتَ ما يَلقاه المجاهِدُونَ مِن آلامٍ، وأدَّى معَ ذلك أعظمَ وأَوسَعَ ما أدَّاه النَّبيُّونَ مِن رِسالاتٍ..

وقَد كان لرِقَّةِ مَشاعِره يَحُسُّ بِوَخزِ الآلامِ إحساسًا مُضاعَفًا وتِلكَ ضَرِيبَةُ العَظَمَةِ البالِغَةِ، شاءَ اللهُ أن يَفرِضَها عليه وَحدَه، وليس يَستطِيعُ أداءَها إلَّا عَظِيمٌ مِثلُه..

رُوِيَ أنَّه قال لِجبريلَ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أمسَى لآلِ مُحَمَّدٍ سَفَّةٌ مِن دَقِيقٍ ولا كَفٌّ مِن سَوِيقٍ!

فأَنزَلَ اللهُ أحَدَ مَلائِكَتِه يقولُ له: إنَّ اللهَ سَمِعَ ما ذَكَرتَ فبَعَثَنِي إليك بمَفاتِيحِ خَزائِنِ الأرضِ، وأَمَرَني أنْ أَعرِضَ عَلَيكَ أنْ أُسَيِّرَ مَعَكَ جِبالَ تُهامَةَ ذَهَبًا وفِضَّةً وزُمُرُّدًا وياقُوتًا..

فإن شِئتَ كُنتَ نَبِيًّا مَلِكًا، وإن شِئتَ كُنتَ نَبِيًّا عَبدًا..

فقالَ الرَّسُولُ: بَل نَبِيًّا عَبدًا![1]

ولقَد آثَرَ ذلك ولَمْ يَزَلْ ضَجِيجُ المُشرِكِينَ يُدَوِّي حَولَه طالِبِينَ إليه أنْ يَكُونَ مَلِكًا غَنِيًّا، مُستَكبِرِينَ عَلَيه أنْ يَكُونَ عَبدًا رَسُولًا..

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣١٨).

ولكِن ما قِيمَةُ هذه الصَّيحاتِ الخافِتَةِ وكيف يُنتَظَرُ مِن بِضعَةِ نَفَرٍ أو بِضعِ قَبائِلَ أن يُوقِفُوا أَطوارَ رِسالَةٍ أُعِدَّت لأَقطارِ الأَرضِ قُطرًا قُطرًا ولأَجيالِها جِيلًا جِيلًا...

لقَدِ امتَدَّ الشُّعاعُ الباهِرُ وتَمَزَّقَت مِن حَولِه الغُيومُ.

وها نَحنُ أُولاءِ بَعدَ قُرونٍ طِوالٍ نَسيرُ في ضَوئِه ونَمشِي عَلَى هَديِه، أو إِنَّنا نَستطِيعُ ذلك إن شِئنا فَلَم تَزَلْ رِسالَةُ الإسلامِ وَضَّاحَةَ الشُّعاعِ تَنعِي عَلَى الـمُنتَسِبِينَ إليها أن يكونوا مِن سَقطِ المتاعِ..

جِهادُ الدَّعوَةِ

مَكَثَ الرَّسُولُ ثَلاثَةَ عَشَرَ عامًا في مَكَّةَ يَدعُو إلى الله عَلَى بَصيرَةٍ، ويَهدِي النَّاسَ إلى الحَقِّ في تُؤَدَةٍ ومَهَلٍ، ويَفُكُّ أَغلالَ القُرونِ الأُولَى، ليَرُدَّ عَلَى البَشَرِ كَرامَتَهُمُ الـمَفقُودَةَ..

وما كَرامَةُ البَشَرِ إلَّا كَرامَةُ الفِطرَةِ السَّلِيمَةِ والقَلبِ الـمُستَنيرِ والعَقلِ الرَّشيدِ..

وكان الرَّسُولُ في دِعايَتِه لدِينِه، سَهلًا واضِحًا مُطمَئنًّا إلى نَصاعَةِ الحَقِّ الذي شَرَّفَه اللهُ به، فهو لا يَطلُبُ مِنَ النَّاسِ إلَّا أن يُمَكِّنُوه مِن شَيءٍ واحِدٍ.. أن يَترُكُوه يُلقِي ما معَه بينَ أَيدِيهم، وأن يُسَلِّطُوا عليه أَفكارَهم وَحدَها!

فإمَّا قَبِلُوه بَعدُ، وإمَّا رَفَضُوه..

وهو لَمْ يَجنَحْ في سَبيلِ الانتصارِ لدِينِه إلى أساليبِ الدِّعايَةِ الملتوِيَةِ، ولَمْ يَتكَلَّفْ في تأليفِ أنصارِه أو رَدِّ خُصُومِه، وَسائِلَ الإغراءِ والإغواءِ؛ فإنَّ ذلك ليس شَرَفًا للدَّعَواتِ الـمُعتادَةِ، فما بالُكَ بدَعوَةٍ أَودَعَ اللهُ في تَعاليمِها عَناصِرَ الدِّياناتِ السابِقَةِ، وأَودَعَ في قَواعِدِها حاجاتِ العُصورِ المتلاحِقَةِ.

لا جَرَمَ أنَّها أسمَى مَكانًا مِن أن تَقُومَ إلَّا عَلَى الحَقِّ وَحدَه.

وأين يستطيعُ النَّاسُ مَيزَ الحَقِ مِنَ الباطِلِ؟

في جَوِّ الحُرِّيَّةِ النَّقِيِّ مِن شَوائبِ الضَّغطِ والقَسوَةِ والاستِبدادِ.

في هذا الجَوِّ تَتنازَعُ المبادِئُ، وتَتَدافَعُ المذاهِبُ، ولكنَّ النتيجَةَ محتومَةٌ..

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧].

والأَغبِياءُ والطُّغاةُ يَكرَهُونَ أبدًا حُرِّيَّةَ الرَّأيِ؛ لأنَّهم يعيشُونَ في ظِلالِ الجُدرانِ التي تَسجِنُ وَراءَها كَرامَةَ البَشَرِ النَّفسِيَّةَ والفِكرِيَّةَ.

وطالما قالَ الرَّسُولُ للمُشرِكِينَ: «لكم دينكم ولي دين» فأَبَوا إلَّا أن يَقُولُوا له: «لَنا دِينُنا ولَيسَ لَكَ دِينُكَ».

ومِن ثَمَّ سُلِّطَتِ القُوَّةُ الجائِرَةُ لـمُحاوَلَةِ إسكاتِ الأَلسِنَةِ التي تَجهَرُ بالقُرآنِ ـ والقُرآنُ هو يومئذٍ صَحافَةُ الـمُسلِمِينَ التي تَنطِقُ باسمِهم وتُنافِحُ عَنهم ـ واتُّبِعَتِ الطَّرائِقُ الصِّبيانِيَّةُ للتَّشويشِ عليه وفَضِّ النَّاسِ عنه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وكذلك سُلِّطَتِ الفِتنَةُ القاهِرَةُ عَلَى الـمُستَضعَفِينَ مِنَ المؤمِنِينَ، فشُرِّدَ مَن شُرِّدَ، وقُتِلَ مَن قُتِلَ، وشَعَرَ المؤمِنونَ الباقُونَ عَلَى عَقيدَتِهم، بالمغارِمِ الفادِحَةِ التي تَحُلُّ بِهم، ولكنَّهم صَبَرُوا عَلَى الـمَكارِهِ إيمانًا واحتِسابًا، وتَطَلُّعًا إلى ما عِندَ الله.

هل كان القُرآنُ جَديرًا بهذه الـمُواجَهَةِ العَنيفَةِ التي قُوبِلَ بها؟

لقَد كان شَديدَ الحَملَةِ عَلَى خُصُومِه حَقًّا، مُبينًا في تَزيينِه لأباطِيلِهم، ولكنَّه سَلَكَ في ذلك سَبيلَ القُوَّةِ الـمَمزُوجَةِ بالنُّبلِ.

والرَّجُلُ النَّبيلُ إذا صَرَعَ خَصمَه لَمْ يَترُكْه عَلَى الأرضِ مُتَعَثِّرًا في أَذيالِ هَزيمَتِه، بل يُسرِعُ إلى الأخذِ بيَدِه قَبلَ أن يَستَوليَ عليه شُعُورُ الخِزيِ والـمَعَرَّةِ في سَقطَتِه.

وهكذا فَعَلَ القُرآنُ بأَعدائِه، فهو يَلفِتُ نَظَرَهم إلى ضَلالِـهم، ويَضَعُ أَيدِيهم عَلَى أَخطائِهم، ثُمَّ يَأبَى ـ أَدَبًا وتَكَرُّمًا ـ أن يَقُولَ للضَّالِّ: إنَّكَ ضالٌّ، أو للمُخطِئِ: إنَّك مُخطِئٌ والآخَرُ مُصِيبٌ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٤، ٢٥].

عَلَى أنَّ هذا كُلَّه لَمْ يَرُقْ في نَظَرِ قَومٍ يَأبَونَ الاعتِرافَ بطُرُقِ الإقناعِ والاقتِناعِ ويَجمَعُونَ إلى جَريمَةِ الكُفرِ، جَريمَةَ الصَّدِّ عَن سَبيلِ الله، فكانَت خاتِمَةُ ثَلاثَةَ عَشَرَ عامًا في الدَّعوَةِ إلى الله أن تَشاوَرَ رُؤَساءُ قُرَيشٍ في نَفيِ الدَّاعِي أو حَبسِه أو قَتلِه!، ثُمَّ يَستَقِرُّ رَأيُهم عَلَى أن يَقتُلُوه بطَرِيقَةٍ يُهدَرُ فيها دَمُه ويَضِيعُ بها ثَأرُه.

هِجرَةٌ بدِينٍ لا فِرارٌ مِن مَوتٍ

وأصبحَ أهلُ مَكَّةَ وهُم يَرقُبونَ صَوتَ النَّاعِي ـ أَخزاهُ اللهُ ـ لِيُبَشِّرَ دَولَةَ اللُّؤمِ والغَدرِ والطُّغيانِ، أنَّ عَدُوَّها الأَلَدَّ قد لَقِيَ حَتفَه قبلَ أن يُورِدَها

حَتفَها، وهَيهاتَ لقَد خَرَجَ محمَّدٌ لَمْ يَمسَسْه سُوءٌ، فإنَّ اللهَ العَلِيَّ القَدِيرَ لا يَترُكُ الحَقائِقَ العُظمَى تَذهَبُ قَبلَ أن تَأخُذَ مَداها، وقَبلَ أن تَترُكَ عَلَى تارِيخِ الأَرضِ طابَعَها العَمِيقَ.

والدِّينُ الذي بُعِثَ به إمامُ الأنبياءِ هو أبو الحقائقِ العُظمَى وأُمُّها، فهو باقٍ وأسبابُ حَياتِه باقيَةٌ معَه ما دامَتِ السَّماواتُ والأرضُ.

نَعَم لقَد أُخرِجَ محمَّدٌ ليُكمِلَ اللهُ به الرِّسالَةَ التي لَمْ تكُنْ قَدِ استَوفَت بَعدُ جُملَةَ حَقائِقِها، وعَلِمَ الطُّغاةُ الذين أَلجَئُوه إلى الهِجرَةِ مَدَى الخَطَرِ المُبَيِّتِ لهم، وشَعَرُوا مِنَ الهَواجِسِ المُنبَعِثَةِ مِن أعماقِ نُفُوسِهم، أنَّ الدَّائِرَةَ سوف تَدُورُ قريبًا عَلَيهم..

لقَد هاجَرَ الرَّسُولُ مِن مَكَّةَ إلى المدينَةِ، ومِن قَبلِه هاجَرَ أكثَرُ المسلمِينَ، فهل كانت تَهَرُّبًا مِن لَقاءِ المَوتِ؟

كَلَّا.. يَدُلُّكَ عَلَى ذلك أنَّ هؤلاءِ المهاجِرِينَ كانوا وَقُودَ الغَزَواتِ والمَعارِكِ الكُبرَى التي دارَت رَحاها لهَدم كُلِّ السُّلطاتِ المستبِدَّةِ، عَربيَّةً كانت أو غيرَ عربيَّةٍ، ولَمْ يُؤثَرْ عن مُهاجِرٍ أنَّه تَرَدَّدَ في مَواطِنِ المَوتِ لحظَةً.

إذًا لِمَ كانَت؟، كانَت لأنَّ الإسلامَ في هذه الفَترَةِ مِن تارِيخِه، يتطَلَّبُ أن يَعيشَ له وأن يَحيا مِن أَجلِه كُلُّ فَردٍ مِن أبنائِه، فضلًا عَنِ الرَّجُلِ الأَوَّلِ فيه محمَّدٍ ﷺ...

كان الإسلامُ يَفرِضُ عَلَيهم أن يَعيشُوا مِن أَجلِه حتَّى يكُونُوا له عَلَى ظَهرِ الأرضِ أُمَّةً راسِخَةَ البِناءِ، ودَولةً سامِقَةَ اللِّواءِ..

فإذا استَقامَت للدِّينِ الجَديدِ أُمَّتُه ودَولَتُه، سُفِكَت لِحياطَتِها الدِّماءُ، وقُدِّمَ للدِّفاعِ عَنها الفِداءُ!

لقد كانَت حَياةُ كُلِّ مُسلِمٍ قَذًى في عَينِ الكُفرِ والكافِرينَ، فَضلًا عن حَياةِ الـمُسلِمِ الأَوَّلِ ﷺ.

إذًا فَليَستَمسِكِ المسلمُونَ بحَياتِهم حتَّى يَغرِسُوا نَبتَ التَّوحيدِ في أرضِ الجَزيرَةِ وفيما حَولَها ولا عَلَيهم بَعدَ إذ غَرَسُوه، أن يَروُوه بدِمائِهم.

فما كانَتِ الهِجرَةُ فِرارًا ولكنَّها كانَتِ انتِصارًا، وكذلك سَمَّاها القُرآنُ الكَريمُ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

لماذا أَرَّخُوا بالهِجرَةِ

إنَّ المسلِمِينَ اعتبرُوا الهِجرَةَ بِدايَةَ تارِيخِهم في هذه الحَياةِ، ولَم يَعُدُّوا مِيلادَ نَبِيِّهم ولا مَبعَثَه مَبدَأً لذلك التاريخِ الحافِلِ البَعيدِ.

ولَمْ يَكُنْ هذا التَّصَرُّفُ إلَّا فِقهًا مِنهم في دِينِهم، وبصرًا نافِذًا في مَعرِفَةِ حَقِيقَتِه وتَقدِيسِ رُوحِه، فالهِجرَةُ ـ سَفَرًا مِن مَكَّةَ إلى المدينَةِ ـ حادِثٌ لا يُذكَرُ ولا يُقَدَّرُ..

فكَمْ في الدُّنيا مِن أَسفارٍ أَطول أمدًا وأَبعَد شُقَّةً مِن هذا السَّفَرِ القاصِدِ.

إنَّما رَوعَةُ الهِجرَةِ أنَّها عَقيدةٌ وتضحيَةٌ وفِداءٌ وكِفاحٌ، وإصرارٌ غَريبٌ عَلَى مُغاضَبَةِ الدُّنيا الثَّائِرَةِ الحاقِدَةِ! والتَّذَرُّعِ بالوَسائِلِ التي في مَقدُورِ البَشَرِ عَلَى مُغالَبَتِها، فإمَّا مَوتٌ كَرِيمٌ وإمَّا نَصرٌ كَريمٌ.

هذه الحِفنَةُ مِنَ المؤمِنِينَ الذين وَخَطَ الشَّيبُ رُءوسَ قادَتِه، والذين عانَوا آلامَ الغُربَةِ الرُّوحِيَّة، والقِلَّةِ المادِّيَّة سِنِينَ عَدَدًا فَما وَهِنُوا ولا استكانُوا، بل خَلَّفُوا في اللَّحظَةِ الأَخِيرَةِ دُورَهُم وأَموالَهم ونَزَحُوا عنها.

هؤلاءِ المؤمنون الأبطالُ، هُمُ الذين أَعطَوُا الهِجرَةَ بأعمالِهِمُ الخالِدَةِ رُوحَ الخُلُودِ، وعَلَّمُوا الحَياةَ كيف تَرجُحُ المبادِئُ بكُلِّ ما تُوزَنُ به مِن مآرِبَ أو مَتاعِب، وكيف تَتَخَطَّى كُلَّ ما يَعُوقُها مِن صِعابٍ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ولو أَدرَكَ المُسلِمُونَ مِنَ التَّارِيخِ بالهِجرَةِ هذا المَعنَى السَّامِي، ما اضطَرَبَت أحوالُهُم هذا الاضطرابَ المُؤسِفَ، فلا هُمُ الذين حَرَصُوا عَلَى الحَياةِ لِدِينِهم في أيِّ بُقعَةٍ مِن بِقاعِ الأرضِ، ولا هُمُ الذين ماتُوا دُونَ أن يَنالَ أعداؤُه مِنه ما نالُوا:

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ [النساء: ٦٦].

مَبادِئُ لا بُدَّ منها

الإيمانُ في السَّاعاتِ الحَرِجَةِ والأَوقاتِ العَصِيبَةِ نجِدُه عِندَما يقولُ أبو بكرٍ: «نَظَرتُ إلى أَقدامِ المُشرِكِينَ ـ ونَحنُ في الغارِ وهُم عَلَى رُءوسِنا ـ فَقُلتُ: يا رسولَ الله، لَو أنَّ أَحَدَهم نَظَرَ إلى قَدَمَيهِ لأَبصَرَنا، فقالَ: يا أَبا بكرٍ «ما ظَنُّكَ باثنَينِ اللهُ ثالِثُهما»[1]؟

(١) رواه الإمام البخاري برقم (٤٦٦٣).

ومَبدَأُ التَّضحِيَةِ الواجِبَةِ تَلمَسُه في مَبِيتِ «عَلِيٍّ» عَلَى فِراشِ الرَّسُولِ قَرِيرَ العَينِ، وهو مُوقِنٌ بأنَّ السُّيُوفَ تُوشِكُ أن تُخالِطَ صاحِبَ الفَرشِ وتُـمَزِّقُ لَحمَه وعَظمَه.

وعاطِفَةُ الحُبِّ الكَرِيم وتَقدِيرُ الـمَصلَحَةِ العامَّةِ، وافتداؤُها بالنَّفْسِ، تَراها فيما يَروُونَه مِن أنَّ أَبا بَكرٍ حينَ انطَلَق معَ الرَّسُولِ إلى الغارِ، جَعَلَ تارَةً يَمشِي بينَ يَدَيه وتارَةً يَمشِي خَلفَه! فقالَ له الرَّسُولُ: «مالَكَ يا أَبا بَكرٍ؟ فقالَ: أَذكُرُ الطَّلَبَ فأَمشِي خَلفَكَ، وأَذكُرُ الرَّصَدَ فأَمشِي أمامَكَ، فلَمَّا انتَهَيا إلى الغارِ قالَ: مَكانَكَ يا رَسُولَ الله حتَّى أَستَبرِئَ الغارَ، فدَخَلَ فاستَبرَأَه، ثُمَّ قال: انزِلْ يا رَسُولَ الله، فنَزَلَ وَأَبُو بَكرٍ يَقُولُ له: «إنْ أُقْتَلْ فأَنا رَجُلٌ واحِدٌ مِنَ الـمُسلِمِينَ، وإنْ قُتِلتَ هَلَكَت هذه الأُمَّةُ[1]».

إنَّ الهِجرَةَ حَقيقَةٌ بأنْ تَكُونَ عَلَمًا عَلَى الإسلامِ؛ لأنَّها كانَت بِما حَدَثَ فيها وبينَ يَدَيها وخَلفَها، الـمَظهَرَ العَمَلِيَّ الصَّحِيحَ للإسلامِ، مَظهَرُ العَقِيدَةِ والتَّضحِيَةِ، والحُبِّ، والفِداءِ.

لكِنَّنا ـ للأسَفِ ـ نَسِينا الهِجرَةَ، بل أَهمَلنا التَّأرِيخَ بِها في حياتِنا، كأَنَّنا نَسِينا الجِهادَ، وما يُذَكِّرُ به.

(١) المستدرك للحاكم، رقم ٤٢٦٨) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين.

لِـمَاذا حُورِبَ؟

كان لَدَى الـمُشرِكِينَ أَكثَرُ مِن سَبَبٍ لعَداوَةِ الإسلامِ والتَّجَهُّمِ لِرِسالَتِه ومُخاصَمَةِ أَتباعِه، ولَسنا نَظُنُّ الاقتِناعَ بصَلاحِيَةِ الوَثَنِيَّةِ والاطمئنانِ إلى ما فيها مِن جَهالَةٍ وخُرافَةٍ، أَحَدَ هذه الأسبابِ.

بل إنَّنا نَستَبعِدُ ذلك مِن رِجالٍ اشتَغَلُوا بشُئونِ التِّجارَةِ، وطَوَّفُوا في آفاقِ الدُّنيا، واستَعرَضُوا الآراءَ والأفكارَ، وقامُوا برَحَلاتٍ عَظِيمَةِ الأَثَرِ في رَفعِ الـمُستَوَى العَقلِيِّ، ثُمَّ استَمَعُوا بعدَ ذلك لـمُحاجَّةِ القُرآنِ وأُسلُوبِه النَّاصِعِ في عَرضِ الدَّعوَةِ وبَسطِ آياتِها...

أَتَرَى أولئك النَّفَرَ مِن قادَةِ قُرَيشٍ وساسَتِها كانُوا يَتَعَصَّبُونَ للأصنامِ ضِدَّ الإسلامِ عن فِقهٍ واعتِقادٍ؟

إنَّ سِرَّ التَّكذِيبِ والخُصُومَةِ أَبعَدُ مِن ذلك، إنَّ التَّعَصُّبَ لهذه الحِجارَةِ الـمَعبُودَةِ لَمْ يَكُنْ إلَّا سِتارًا للحِرصِ عَلَى الـمَنافِعِ الـمَبذُولَةِ في ظِلِّها، والشَّهَواتِ الـمُنطَلِقَةِ بِرِضاها، والسِّيادَةِ الـمَقرُونَةِ باسمِها.

حَرَصَ أصحابُ الأوضاعِ القائِمَةِ عَلَى ما يَستَفِيدُونَ منه، ويَرَونَ ضَياعَه ضَياعَ مَجدِهم وسُقُوطَ مَنزِلَتِهم.

والدَّعوةُ إلى الإسلامِ لَمْ تَكُنْ دَعوةً لِهَدمِ الأَصنامِ فقط، بل لهَدمِ الرِّجالِ الذين رَبَطُوا كِبرِياءَهم ومَصالحَهم ببقائِها، وهاجَت في نُفُوسِهم مَشاعِرُ الحِقدِ والغَطرَسَةِ ضِدَّ مَن يُهاجِمُها، ونَظَرُوا إلى الدَّعوةِ الجَدِيدة ورِجالِها مِن زاوِيَةٍ خاصَّةٍ! زاوِيَةِ المنافَسَةِ والاستِكثارِ، والاستِنكارِ، وانظُرْ إلى هؤلاءِ المشركِينَ يَكشِفُونَ عَن عَواطِفِهِمُ الدَّفِينَةِ وأَسبابِ تَكذِيبِهم لصاحِبِ الرِّسالَةِ العَظِيمِ فيَصِيحُون:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ...﴾ [القصص: ٥٧].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ...﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾؟ [ص: ٨].

ماذا تَرَى في هذا التَّساؤُلِ والاعتِراضِ؟

أَلَستَ تَسمَعُ فيه صُراخَ الهَوَى والأَثَرَةِ ضِدَّ الحَقِّ المُبِينِ، لا لشَيءٍ في هذا الحَقِّ غيرِ الحَسَدِ لِمَن جاء به، والشُّعُورِ بأنَّ انتصارَ الحَقِّ سوف يُقَوِّضُ دَولَةَ الظُّلمِ، ويُزَلزِلُ عُظَماءَها، ويَتَخَطَّفُهم مِن أَرضِهِم، ويَمحُو كافَّةَ ما لهم مِنَ امتيازاتٍ باطِلَةٍ؟

ذاك سِرُّ كَراهِيَةِ الجَبَّارِينَ والطُّغاةِ للإسلامِ ودَعوَتِه الجَلِيلَةِ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ.

إنَّ فِرعَونَ لـمَّا تَوَقَّحَ عَلَى مُوسَى وأَلَّبَ حاشِيَتَه ضِدَّ رَسُولِ اللهِ لَمْ

يَكُنْ يَعلَمُ مِن نَفْسِه أنَّه إلهٌ، وما كان أتباعَه يَحسَبُونَ أنفُسَهم عَبِيدَه الذين خَلَقَهُم مِن عَدَم.. إنَّه الكِبرُ والاستِغلالُ ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ...﴾ [النمل: ١٤].

وإنَّه ليَستَنهِضُ الهِمَمَ في مُقاتَلَةِ عِبادِ الله بهذا الأُسلُوبِ العاتِي المغرُورِ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

أَتَرَى في هذا الأمرِ الفُرعُونيِّ إلَّا السَّفَهَ والجَبَرُوتَ؟

أَتَرَى فيه إثارَةً لِعَقلٍ أو حَقٍّ...؟ كَلَّا..

في هذا الطَّرِيقِ الجائرِ مَشَتِ العَلاقَةُ بَينَ رُسُلِ الله إلى النَّاسِ، وبَينَ حُرَّاسِ الضَّلالَةِ والفَوضَى بَينَ النَّاسِ؛ ما إنْ يَدُورُ النِّقاشُ عَلَى هذا النَّحوِ الذي رَأَيتَ حتَّى يَضِيقَ الـمُبطِلُونَ بِما يَسمَعُونَ، ثُمَّ يَبدَأُ النَّفيُ والاضطهادُ، وتَبدَأُ الهِجرَةُ والفِرارُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]..

إنَّ الخُبَراءَ بأحوالِ الـمُجتَمَعاتِ الفاسِدَةِ يَعرِفُونَ بِفِطرَتِهم ما سَيَلقاهُ مُصلِحُوها مِن عَناءٍ، وقد كان وَرَقَةُ بنُ نَوفَلٍ صادِقَ الحَدسِ عِندَما قَدَّرَ أنَّ مَكَّةَ سوفَ تَتَمَرَّدُ عَلَى رَسُولِ الله وتَأبَى مُقامَه فيها، وجاشَ في نَفْسِه حُبُّ النَّجدَةِ والانتِصارِ للحَقِّ الـمُستَضعَفِ فقالَ: «لَيتَنِي فِيها جَذِعًا إذ يُخرِجُكَ قَومُكَ، فتَساءَلَ النَّبِيُّ دَهِشًا أَوَ مُخرِجِيَّ هُم..[1]»!

(١) رواه الإمام مسلم برقم (١٦٠).

إنَّه تَساؤُلُ الرَّجُلِ الشَّرِيفِ البَعيدِ عَن خَواطِرِ الشَّرِّ ووَساوِسِ السُّوءِ لا يَمُرُّ بفُؤادِه السَّمحِ ظِلٌّ للعُدوانِ فهو لا يَفترِضُه في غَيرِه! ثُمَّ هو بأَمانَتِه ومُروءَتِه وَطِيدُ الـمَنزِلَةِ بَينَ النَّاسِ، فما الذي يُؤَلِّبُ النَّاسَ عليه ويحمِلُهم عَلَى إخراجِه؟

بَيدَ أنَّ وَرَقَةَ يُؤَكِّدُ ما يقولُ: «ما أَتَى رَجُلٌ قَومَه بمِثلِ ما جِئتَ بِه إلَّا أُخرِجُوه، ولَئِن يُدرِكْنِي يَومُكَ أَنصُرْكَ نَصرًا مُؤَزَّرًا[1]».

وقَد حَدَثَ ما تَوَقَّعَه وَرَقَةُ، بل تَـمَخَّضَتِ الأَحداثُ عَن عُدوانٍ أَشَدِّ، فلَمْ يُخرَجِ الرَّسُولُ فقط، بل وُضِعَتِ الجَوائِزُ الـمُغرِيَةُ لـمَن يَأتِي به حَيًّا أو مَيْتًا بعدَ ما أَخفَقَتِ الـمُؤامَرَةُ الـمُبَيَّتَةُ عَلَى سَفكِ دَمِهِ!

إنَّ كِبرِياءَ السَّادَةِ، ومَلَقَ الأتباعِ، يَضَعُ أَمامَ الـمُصلِحينَ عَقَباتٍ جِسامًا دُونَ تَحطِيمِها جِهادٌ وجِلادٌ، ويَنبَغِي أن يَتَهَيَّئُوا لذلك حتَّى لا تَرُوعَهُمُ الـمُفاجَأَةُ، وما أَحسَنَ قَولَ الـمُتَنَبِّيّ:

عَرَفنا اللَّيالي قَبلَ ما صَنَعَت بِنا
فَلَمَّا دَهَتنا لَمْ تُزِدْنا بِها عِلما

إنَّ العَداوَةَ بَينَ التَّوحِيدِ والشِّركِ بَدَأَتْ عَنِيفَةً جِدًّا، برَغمِ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حاوَلَ جاهِدًا أن يُلَطِّفَ مِن حِدَّتِها، وأن يَتَجَنَّبَ مُضاعَفاتِها، وأنْ يُضفِيَ مِن فَضلِه ونُبلِه عَلَى ما حَولَه، فهو يَصِلُ مَن قَطَعَه، ويُعطِي مَن حَرَمَه، ويَعفُو عَمَّن ظَلَمَه، ويُصابِرُ السُّفَهاءَ، ويُلِينُ للمُشاغِبِينَ.

(١) نفس الحديث.

لكِنَّ ذلك كُلَّه لَمْ يُجْدِ فَتِيلًا معَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَه هَواه..!

وهكَذا أَثبَتَ تارِيخُ «الأُوتوقراطيةِ الوَثَنيَّةِ[1]» أنَّ تَرويضَها مُستَحيلٌ، وأنَّ تَلَطُّفَ الأَنبياءِ معَها لَمْ يَزِدْها إلَّا ضَراوَةً، وأنَّ وَحشِيَّتَها لا عِلاجَ لها إلَّا تَقليمُ الأَظافِرِ وتَحطِيمُ الأَنيابِ، وأنَّها لَوِ استطاعَت سَفكَ الدَّمِ الحَرامِ لقَتَلَت، ولَوِ استَطاعَت كَبْتَ الحُرِّيَّاتِ لفَعَلَت، لا يُثنِيها شيءٌ أبدًا....

والعَداوَةُ الأَزَليَّةُ الأَبَدِيَّةُ بَينَ الـمُحِقِّينَ والـمُبطِلِينَ لَيسَت ممَّا يَأسَفُ الإنسانُ له، أو يَستَوحِشُ مِنه ما دامَ يُحمَلُ عَلَيها حَمْلًا.

بل لقَد كانَ الرِّجالُ أَصحابُ المبادِئِ يَفخَرُونَ بها ويَرَونَها آيَةَ الصِّدقِ والاستِقامَةِ.

(١) مصطلح يطلق على الحكومة التي يرأسها شخص واحد، أو جماعة، أو حزب، لا يتقيد بدستور أو قانون، ويتمثل هذا الحكم في الاستبداد في إطلاق سلطات الفرد أو الحزب، وتوجد الأوتوقراطية في الأحزاب الفاشية أو الشبيهة بها، وتعني الكلمة باللاتينية الحكم الإلهي، أي أن وصول الشخص للحكم تم بموافقة إلهية، والاوتوقراطي هو الذي يحكم حكمًا مطلقًا ويقرر السياسة دون أية مساهمة من الجماعة، وتختلف الاوتوقراطية عن الديكتاتورية من حيث أن السلطة في الأوتوقراطية تخضع لولاء الرعية، بينما في الدكتاتورية فإن المحكومين يخضعون للسلطة بدافع الخوف وحده.

أَصحابُ الرِّسالاتِ

الرَّجُلُ صاحِبُ الرِّسالَةِ يَعِيشُ لِفِكرَتِه ويَعيشُ في فِكرَتِه...!

فحَياتُه فِكْرَةٌ مُجَسَّمَةٌ تَتَحَرَّكُ بَينَ النَّاسِ، تُحاوِلُ أبدًا أن تَفرِضَ عَلَى الدُّنيا نَفْسَها، وأن تَغرِسَ في حاضِرِ الإنسانيَّةِ جِذْرَها ليَمتَدَّ عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ واللَّيالِي فُرُوعًا مُتَشابِكَةً تُظَلِّلُ الـمُستَقبَلَ وتتَغَلغَلُ فيه....

ومِن ثَمَّ تَبدَأُ الدَّعَواتُ والنَّهَضاتُ الكُبرَى برَجُلٍ واحِدٍ، هو ـ في بِدايَةِ أمرِه ـ أُمَّةٌ وَحدَه.

أُمَّةٌ يَتَخَيَّلُ حَقِيقَتَها في رَأسِه، ويَحُسُّ ضَرُورَتَها في دَمِه، ويُبَشِّرُ بِها في كَلامِه ويَحمِلُ أَثقالَها عَلَى كاهِلِه.

ولا يَزالُ يَجمَعُ الرَّجُلَ عَلَى الرَّجُلِ، ويَضُمُّ البَيتَ إلى البَيتِ، ويَرسِمُ الـمَبدَأَ، والوَسِيلَةَ والهَدَفَ ويَنفُخُ مِن رُوحِه فيمَن حَولَه.. فإذا الأُمَّةُ التي كان يَتَخَيَّلُها وَحدَه قَد أصبَحَت حَقِيقَةً واقِعَةً تَطلُعُ الشَّمسُ عَلَيها، ويَعتَرِفُ النَّاسُ بها، ويُسَجِّلُ التَّارِيخُ قِيامَها.

وهكذا بَلَّغَ النَّبِيُّونَ رِسالاتِ رَبِّهم، وصَنَعُوا بأيدِيهِمُ الأُمَمَ التي انتقَلَت بِها الإنسانيَّةُ مِن طَورٍ إلى طَورٍ.

وهكَذا فَعَلَ العُظَماءُ مِن قادَةِ الفِكرِ النَّاضِجِ، وأَصحابِ الـمَذاهِبِ الفَعَّالَةِ والتَّيَّاراتِ العَقليَّةِ الكاسِحَةِ. إنَّ أَحَدَهم يَضَعُ «تَصمِيمَ» الـمُجتَمَعِ الذي يَنشُدُه كَما يَرسِمُ الـمُهَندِسُ عَلَى الوَرَقِ تَصمِيمَ القَصرِ الذي يُرِيدُه.. ثُمَّ لا يَزالُ يَرفَعُ القَواعِدَ، ويُشَيِّدُ الشُّرُفاتِ، ويَستَحِثُّ الفَعَلَةَ، ويَستكمِلُ الأدَواتِ، حتَّى يَستَوِيَ البِناءُ قائِمًا شامِخًا، عليه مِن رُوحِ مُنشِئِه طابَعٌ وبُرهانٌ.

وإنَّ أَحَدَهم لَيَقُولُ الكَلِمَةَ في الإبانَةِ عَن دَعوَتِه فتَتَلَقَّفُها النُّفُوسُ والعُصُورُ تَلَقُّفَ الأَرضِ الخَصبَةِ للحَبَّةِ التي أَودَعَ اللهُ فِيها سِرَّ النَّماءِ والازدِهارِ.. فإذا هذه الكَلِمَةُ الـمُرسَلَةُ تُنشِئُ رِجالًا وتَخلُقُ أبطالًا، بل تُنشِئُ أَجيالًا وتُزَلزِلُ جِبالًا.

وإنَّ أَحَدَهم لَيُولَدُ وفي الدُّنيا دُوَلٌ قائِمَةٌ، وآراءٌ سائِدَةٌ، وتَقالِيدُ مُقَرَّرَةٌ وجَماهِيرُ تَحيَا عَلَى ذلك وتَمُوتُ، كأَنَّها فُقاعاتُ الـمَوجِ، تَظهَرُ وتَختَفِي، لا وَزنَ لها ولا غَناءَ.. فإذا الدُّنيا تَميدُ تَحتَ قَدَمَيْ صاحِبِ الرِّسالَةِ النَّاشِئِ وهو يَنظُرُ إلى الأَوهامِ السَّائِدَةِ، والمَمالِكِ القائِمَةِ، والأَحزابِ الـمُتَأَلِّبَةِ، ثُمَّ يَبتَسِمُ في قِلَّةِ اكتِراثٍ، ويَقُولُ قَولَةَ النَّبِيِّ العَظِيمِ قُبَيلَ مَوقِعَةِ حُنَينٍ، وقَد وُصِفَت له تَجَمُّعاتُ أَعدائِه وعِدَّتِهم: تِلكَ غَنِيمَةُ المسلمِينَ غدًا إنْ شاءَ اللهُ!

❀ ❀ ❀

أُولَى صِفاتِ صاحِبِ الرِّسالَةِ أنَّه يُؤمِنُ بنَفسِه، ويَكفُرُ بخُصُومِه ويُغالِي بفِكرَتِه، ويَحقِرُ ما عَداها، ويُزَحزِحُ غَيرَه، ولا يَتَزَحزَحُ أَلبَتَّةَ، ويَترُكُ النَّاسَ عَلَى رَأيِه إنِ استَطاعَ، ولا يَنزِلُ عَلَى آرائِهم أبدًا ويَثبُتُ عَلَى شِدَّةِ الكَيدِ، ويَصبِرُ عَلَى مَرارَةِ الهَزِيمَةِ، ويَعِيشُ في وَطَنٍ مِن دَعوَتِه إنْ نَبَا

به وَطَنُه ويَدُوسُ الأَمجادَ الزَّائِفَةَ، ويَستَهزِئُ بعُرُوضِها، ولا تَستَخِفُّه كَثرَةُ طُلَّابِها، ولا تَفجَعُه قِلَّةُ الزَّاهِدِينَ فيها.

وفي حَياةِ «محمَّدِ بنِ عبدِ الله» النَّبيِّ الذي أَدَّبَ العُرُوبَةَ ليُؤَدِّبَ بها الأُمَمَ، والذي قَدَّمَ للحَياةِ رِسالَةً لا تَزالُ الإنسانيَّةُ تَتَأَلَّقُ بها وتَتَأَنَّقُ، وتُشرِقُ بها وتَزدانُ.. في حَياةِ هذا النَّبيِّ النَّبيلِ مُثُلٌ عُليا يَفزَعُ إليها صاحِبُ كُلِّ رِسالَةٍ فاضِلَةٍ عادِلَةٍ لِيَرتَوِي مِنها إذا صَدِيَ، ويَسعَدُ بها إذا شَقِيَ، ولِيَقتَبِسْ مِنها دُروسًا مُجدِيَةً في طَرائِقِ الجِهادِ المُضنِي عِندما يتجَرَّدُ الحَقُّ إلَّا مِن إشراقِه، ويَتَشَدَّدُ الباطِلُ لكَثرَةِ عُدَّتِه وعَتادِه..!

بَدَأَ هذا الرَّسُولُ فوَضَعَ فَواصِلَ غَلِيظَةً بَينَ الحَقِّ الذي اهتَدَى إليه، وبَينَ الباطِلِ الذي تَوارَثَ النَّاسُ العَمَلَ به والاحتِكامَ إليه.

إنَّه مِن ناحِيَةِ العَدَدِ قَليلٌ بنَفْسِه وإخوانِه، وهؤلاءِ كثيرونَ بأنفُسِهم ونُظُمِهمُ المألُوفَةِ وأفكارِهم القَدِيمَةِ وأَوضاعِهمُ العَتِيدَةِ...

فلا بُدَّ إذًا مِن قَطعِ كُلِّ أَمَلٍ في أن يَتَّفِقَ مَعَهم أو يَخضَعَ لَهم، لقَد سَلَكَ نَهجًا غيرَ الذي أَلِفُوه ولَن يَجمَعَه بِهم طَرِيقٌ ما دامُوا عَلَى مُعتَقَداتِهمُ الأُولَى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون].

في هذه السُّورَةِ تَسمَعُ صَرخَةَ الحَقِّ العَنِيدِ عِندَما يَفتَرِضُ أنَّ الباطِلَ سَيَلِجُ في غِوايَتِه، وأنَّ هذه اللَّجاجَةَ لَن تُثنِيَ لأصحابِ الحَقِّ عَزمًا أو تُقَيِّدَ لهم قَدَمًا وآياتُ هذه السُّورَةِ تَرمِي إلى مُجاهَرَةِ الكافِرِينَ بهذه الحَقِيقَةِ

الرَّائِعَةِ، وهي أَنَّ كَتِيبَةَ الله انطَلَقَت لأداءِ رِسالَتِها، وعَرَفَتْ أنَّها مُتَمَرِّدَةٌ عَلَى الأَوضاعِ الباطِلَةِ ثُمَّ هي مَسرُورَةٌ بهذا التَّمَرُّدِ آنِسَةٌ به وأنَّه يَزدادُ سُرُورُها عِندَما يَعلَمُ الكُفَّارُ ذلك، وعِندَما يُوقِنُونَ بأنَّ الكَتِيبَةَ المُؤمِنَةَ قد بَنَت حاضِرَها ومُستَقبَلَها عَلَى ذلك فلَن تَرجِعَ إلى الكُفرِ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ..

والرَّسُولُ العَظِيمُ في هذه الخُطَّةِ يَقتَفِي أَثَرَ جَدِّه إبراهِيمَ لَـمَّا نابَذَ قَومَه بالخُصُومَةِ، وجَعَلَ مِن أَهلِه المُؤمِنِينَ حِزبًا يُمَثِّلُ الحَقَّ ويُنافِحُ عنه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

عَلَى أنَّ الصَّبرَ عَلَى أَعباءِ الرِّسالَةِ التي تُدَبَّرُ للإنسانيَّةِ حَدَثًا ضَخمًا يُعارِضُه مِنَ النَّاحِيَةِ المُقابِلَةِ صَبرٌ مِنَ الجامِدِينَ عَلَى مَورُوثاتِهِمُ المُقَدَّسَةِ، واستِماتَةٌ في الدِّفاعِ عَنها.

وهُنا يَدخُلُ الفَرِيقانِ في مُبارَزَةٍ بالصَّبرِ أَقسَى وأَنكَى مِنَ المُبارَزَةِ بالسِّلاحِ..

والفائِزُ فِيها أَطوَلُ الفَرِيقَينِ إصرارًا، وأَشَدُّهم تَحَمُّلًا، وأَكثَرُهم بَذلًا، وأَرضاهُم بتَقدِيمِ التَّضحِياتِ الجَسِيمَةِ، وأَجرَؤُهم عَلَى اقتِحامِ الأَهوالِ العَظِيمَةِ.

ولَن يُكتَبَ النَّصرُ للإيمانِ إلَّا إذا تَوَفَّرَت هذه الشَّرائِطُ كُلُّها لأَتباعِه، فإنَّ الباطِلَ سيَسخَرُ مِنَ الحَقِّ سُخرِيَةً لاذِعَةً طويلَةَ اللِّسانِ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وسَيُبدِي الباطِلُ أنَّه لَمْ يَأْبَهْ للصَّيحاتِ التي تَناوَلَته، وأنَّ هذا الحَقَّ الجَدِيدَ وأصحابَه الـمَغرُورِينَ به لَيسُوا إلَّا سَحابَةَ صَيفٍ عَن قَلِيلٍ تَنقَشِعُ، وأنَّها لَمْ تُغَيِّرْ شَيئًا ممَّا كان ولَن تَستَطِيعَ ذلك..

ويقُولُونَ في عِنادٍ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وسوف يَجنَحُ الكُفَّارُ إلى المالِ ـ وما أَقوَى سُلطانَ المالِ ـ يَستَغِلُّونَه للرِّشوَةِ وشِراءِ العَقائِدِ وتَخرِيبِ الذِّمَمِ، فإن عَجَزُوا عن ذلك استَغَلُّوه في إشعالِ حَربٍ مُهلِكَةٍ لتَأدِيبِ الثَّائِرِينَ ـ كما يقُولونَ ـ ولإعادَةِ الـمِياهِ إلى مَجارِيها!

والعَدلُ في البِيئاتِ الظَّالِـمَةِ كالنُّورِ في اللَّيالي المظلِمَةِ، كالتَّوحِيدِ في الأُمَمِ الـمُشرِكَةِ، كُلُّ ذلك خُرُوجٌ عَنِ المألُوفِ، فهُوَ ثَورَةٌ تُستَنكَرُ ويُحارَبُ أَصحابُها، وعَلَى الموسُومِينَ بأنَّهم ثُوَّارٌ أن يَصبِرُوا عَلَى هذه التَّسمِيَةِ وما تَستَلزِمُه مِن مُعامَلاتٍ يَفرِضُها نامُوسُ الأَوضاعِ القَدِيمَةِ إلى أن يَأذَنَ اللهُ بزَوالِ هذه الأَوضاعِ...

وقد كانَ الرَّسُولُ الكَبِيرُ صَبَّارًا عَلَى مَطالِبِ رِسالَتِه، ناهِضًا بأَعباءِ دَعوَتِه، وهُو يُعالِجُ أُمَّةً في أَخلاقِها وَحشَةٌ ورَهبَةٌ، كأنَّها ظِلالٌ للصَّحراءِ التي تَسكُنُها مِن قَدِيمٍ.

وفي كَنَفِ هذا الرَّسُولِ تَربَّى جِيلٌ مِنَ البَشَرِ هَيهاتَ أن يُوجَدَ مِثلُه بَلاءً ووَفاءً وتَقدِيرًا لقِيَمِ الرِّسالاتِ ووَزنًا للرِّجالِ بمَعايِيرِها الصَّحِيحَةِ..

إنَّه جِيلٌ لَمْ يَنكَصْ أَمامَ أيِّ نَوعٍ مِن أَنواعِ التَّضحِيَةِ طُلِبَ إليه... ضَحَّى بِكُلِّ شَيءٍ لكَي يَسلَمَ له دِينُه فحَسبُ.

خَرَجَ صُهَيبٌ مُهاجِرًا فاتَّبَعَه نَفَرٌ مِن مُشرِكِي قُرَيشٍ فنَزَلَ عن راحِلَتِه ونَثَرَ ما كان في كِنانَتِه وقال: والله لا تَصِلُون إليَّ أو أَرمِي بكُلِّ سَهْمٍ مَعِي ثُمَّ أَضرِبُ بسَيفِي ما بَقِي في يَدِي... وإن شِئتُم دَلَلتُكُم عَلَى مالٍ دَفَنتُه بمَكَّةَ! وخَلَّيتُم سَبِيلِي. فقالوا: دُلَّنا! ففَعَلَ. فلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ ﷺ نَزَلَت فيه هذه الآيَةُ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ومِن عَمَلِ العَقِيدَةِ العَمِيقَةِ في النَّفْسِ أنَّها تُهَيِّجُ صاحِبَها حتَّى تُجَشِّمَه فَوقَ طاقَتِه مِن عَمَلٍ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عَذَرَ في الهِجرَةِ مَن لا يَستَطِيعُها مِنَ الشُّيُوخِ العَجَزَةِ، ولكِنَّ شَيخًا مَرِيضًا مِن بَنِي لَيثٍ حَدَّثَته قُوَّةُ الإيمانِ في نَفْسِه، وأَوحَت إليه الرِّسالَةُ الصَّادِقَةُ التي يَعمَلُ لها، أنَّه أَهْلٌ للهِجرَةِ فقال: والله ما أنا مِمَّن استَثنَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ وإنِّي لأَجِدُ حِيلَةً.

ولي مِنَ المالِ ما يُبَلِّغُنِي المَدِينَةَ وأَبعَدَ مِنها.

والله لا أَبِيتُ اللَّيلَةَ بمَكَّةَ، أَخرِجُونِي.

فخَرَجُوا به يحمِلُونَه عَلَى سَرِيرٍ حتَّى جاوَزُوا قرِيبًا مِن مَكَّةَ، فبَرَحَت به العِلَّةُ وحَضَرَه الموتُ فضَرَبَ بيَمِينِه عَلَى شِمالِه ـ كهَيئَةِ المُبايَعَةِ ـ ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ هذه لَكَ، وضَرَبَ مَرَّةً أُخرَى وقالَ: وهذه لرَسُولِكَ، أُبايِعُكَ عَلَى ما بايَعَ رَسُولُكَ. ثُمَّ ماتَ..

وبَلَغَ خَبَرُه أصحابَ الرَّسُولِ فتَمَنَّوا لو أنَّ الرَّجُلَ وافَى الـمَدِينَةَ!

فنزَلَتِ الآيَةُ:

﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٠٠].

إنَّ الرَّجُلَ صاحِبَ الرِّسالَةِ يُؤثِّرُ في الحَياةِ ولا يَتَأَثَّرُ بِها، ويُوَجِّهُ الأُمَّةَ ولا يَتَدَرَّجُ معَ تَيَّارِها.

وكُلُّ عامٍ يَلُوحُ هِلالُه في الأُفُقِ، يُذَكِّرُ الـمُسلِمَ الحُرَّ، بأنَّ النَّفْسَ والمالَ والأَهلَ والوَطَنَ، فِدًا للإيمانِ الصَّحِيحِ، والإخلاصِ للهِ ورَسُولِه.